UNIVERSAL
LIBRARY

OU_234835

UNIVERSAL
LIBRARY

الإسلام

ماضيه وحاضره

بقلم

عبد الباقي سرور نعيم

من علماء الأزهر الشريف

الطبعة الاولى

حقوق الطبع محفوظة المؤلف

سنة ١٣٤٢

مطبعة جريدة (الصباح) بمصر

الإسلام

ماضيه وحاضره

بقلم

عبد الباقي سرور نعيم

من علماء الازهر الشريف

الطبعة الاولى

حقوق الطبع محفوظة المؤلف

سنة ١٣٤٣

مطبعة جريدة الصباح بمصر

لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ؟

النهضة الاسلامية الحاضرة

شغل البحث فيما بات اليوم أمراً واقعاً (من نهوض المسلمين) رجال الفكر في أوروبا وقادة السياسة في الغرب واختلف رأيهم في تلك المسألة لاختلاف وجهة النظر، وتنوع حكمهم لتنوع طرق التفكير واختلاف مناهج البحث. فمن ذاهب الى أن منشأ التطورات الخطيرة التي نرى اليوم في البلاد الاسلامية - يرجع الى ضغط أوروبا ومسارعة رجال السياسة فيها الى تنفيذ فكرة القضاء على الحكومات الاسلامية المستقلة، وتعطيل نمو الحركات الاستقلالية في البلاد الاسلامية التي تخضع لنفوذ أوربا وتشرف عليها الرقابة الفعلية لحكومات الغرب. ويرى أصحاب هذا الرأي انه لولا ذلك الضغط لما كان للنهضة الحاضرة أثر ولا لتلك التطورات وجود. ومن رأيهم أن أوروبا لو تخلت عن سياسة الشدة وعدلت عن خطة القمع التي تنفذها اليوم بدقة في البلاد الاسلامية لقضت على مناشىء نهضة المسلمين

الحاضرة واجتثت اصول التطور الذى ان تركته فى حالة النمو الحاضرة فسوف تتبدل طبيعته لامحالة . ويصبح انقلابا خطير الشأن فى طبيعته وخصائصه، وفى مبدأه وغايته . وفى نتائجه وآثاره ومتى تم اكتمال هذا التطور فسيصبح من المستحيل على رجال الغرب تلافى خطره ومقاومة نتائجه وتعطيل آثاره : شأن التطورات اذا اكتملت . وسنة الانقلاب متى استوفى خصائصه

***

ومن قائل ان أسباب تلك النهضة الحاضرة ترجع الى مانشره واسن من مبادئه الحديثة وبثه من تعاليمه المتعلقة بحرية المصير واستقلال الامم. ويرى أنصار هذا الرأى انه يمكن تعطيل تلك النهضة بترضية بعض الامم الاسلامية ترضية تقتسم السياسة فيها مبدأ حرية المصير مع المطالبين به ، فتعترف بجزء من المبدأ ، وتتنازل الامم عن الجزء الآخر . وبذلك تزول أسباب النهضة وتجتث أصولها اجتثاثا لا رجعة بعده . من أجل ذلك نشأت فكرة المفاوضات

والتجأت السياسة الى عقد المؤتمرات على أمل أن تنال من الامم فيها مالم تنله بالسيف والمدفع، وتصل اليه بالنار والحديد

ولقد اختصت السياسة بعض الامم بهذا النوع من المخاتلة . واختصت البعض الآخر بالنزول على حكمه حينما يئست من قهره فى ميادين الحرب . أو صيده فى ميادين السياسة، كما وقع فى الافغان وفى فارس. وابتدأ الغرب يعترف به فى المسألة التركية

وبذلك اضطربت السياسة فى معالجة المشاكل ولم تهتد الى خطة معينة ثابتة تلتزمها فيما تحاول ان تصل اليه من ضروب الحل لتلك المشاكل وصنوف التسوية التى تقترحها باستمرار لانهاء مخاطر الشرق

ولولا ضلال السياسة وعدم اهتدائها فى الوقوف على الاسباب التي أدت الى نهضة المسلمين الحاضرة لما غشيها تلك الحيرة ، وحل بها ذلك الفشل المحزن . ولو أن الباحثين من رجال الغرب فى أسباب نهضة المسلمين الحالية أنصفوا التاريخ وعدلوا فى الحكم على الحوادث لما رجعوها

الى ضغط أوربا ونسبوها الى مبادىء ولسن لان لها أسبابا طبيعية أدت اليها، وارتبطت بها ارتباط الوسيلة بالغاية والمقدمة بالنتيجة، كـكل التطورات التاريخيه والانقلابات العالميـة : ومنذا الذى يستطيع أن يحكم بان نهضة الاتراك مانشأت الا بعد حوادث الهدنة ؟ وفى التاريخ دلائل ترشد الى أن ما فى أنقرة اليوم ليس الا تتمما لحـركات سـابقة ونهضات متعاقبة نشأت عن عقائد راسخة. وآمال قوية نامية. ورغبات فى الحياة صادقة . وان كان لما وقع بعد الهدنة أثر فى تلك النهضة فهو محصور فى دائرة محدودة استطاع فيها أن يجعل التطور السابق انقلابا تاما فى مدة وجيزة له من النتـائج والاثار والخصائص والمميزات ما أدهش أوربا وجعلها تحتار فى تحديد ماهيته واكتناه أسبابه

ان تاريخ فارس يرشد الى أن حركتهـا اليوم اتصالا بحركاتها السابقة، وارتباطا بنهضاتها المتوالية . كـذلك يرشد تاريخ الافغـان الى أن مالهـا اليوم من المطامع والآمال ودلائل النهوض والاكتمال يتصل بتطوراتها المجيدة السابقة

وفى تاريخ مصر آيات تنبىء بأن تطورها الحالى مسبوق بنهضات متعاقبة ورغبات فى الاستقلال صادقة . وحركات هذا شأنها ينبغى أن يكون البحث فيها معقودا بالانصاف وقائما على الرغبة فى اكتناه الاسباب الحقيقية ، ولكن أبت السياسة الا أن تشوه طرق البحث ووسائط التفكير لتنشر حول الحقائق من الاوهام والاباطيل ما يحير الباحث ويضل به فى مباحث وهمية . ولا غرض لها من وراء ذلك سوى الوصول الى اقناع الامم بأن ما تراه من الحلول فى معالجة المشاكل الشرقية يجب أن يكون البحث فيه مقيدا بما رسمته من السبل ، وحددته من المسالك ، فهى صاحبة الحكم والهادية الى طرائق النظر ومناهج البحث ، فاليها يرجع الامر كله فى الحل والعقد ، والبحث والاستنتاج ، والحكم والتنفيذ

من أجل ذلك ينبغى للمفكرين من رجال الشرق أن لا يهتدوا بأحد من رجال السياسة ، ومن ينتسب اليها من رجال القلم ، فى شىء من المباحث التى تتعلق بشؤونهم وترتبط بمصيرهم وتتصل بمناشىء النهوض فى بلادهم ، فما نشأت

الحركات الا فى ديارهم، وما كان التطور الا فى مواقع أنظارهم فهم أعلم من غيرهم بطبائع العناصر التي أدت الى هذا التطور ونشأت عنها تلك النهضة وهم أدرى الناس بما أثر فيها من المؤثرات التي منها مايرجع الى الدين، ومنها مايرجع الى القومية

* * *

ولقد تنوعت طرق النشر فى أوربا وأحكمت مناهج التضليل فيها. وما راج التمويه وقلب الحقائق فى عصر من العصور كما راج فى هذا العصر، وما رأى التاريخ ولا سمع بنو آدم أن حكومة متمدنة قد انشأت للتضليل دوائر خاصة وميزانيات وافية، ومكاتب ضخمة، وأقلاما مختارة، وصحفا متعددة، وكتابا وشعراء ومؤلفين وفلاسفة، وما الى ذلك مما اصطلح على تسميته فى بعض الدول بمصلحة النشر، كما أنشأت دول أوربا الحاضرة وحكوماتها المتمدنة

وما أنشئت تلك الدوائر الا لتسميم العقول وتضليل ادراك وتعمية السبل على المنصف حتي لا يهتدى طالب نيقة إن وجد، وحتى يخلو أمامها الجو فتتولى رسم مناهج

البحث للباحثين ووضع طرق التفكير وحدود النظر للناظرين فتتولى ارشاد العقول فى الشرق كما تولت ارشاد حكوماته ورجال الحل والعقد فيه لتستطيع نشر نفوذها على البلاد وما فيها، وعلى العقول وما يحول بها، ولتقطع على الآملين آمالهم، وتساعد القانطين على اليأس من النهوض بأممهم طمعاً منها فى أن يلتقى نظر الفئتين عند نقطة واحدة هى اليأس من النجاح (والعياذ بالله) يأساً يستوى فيه القانط والمؤمل والراجى واليائس، لان البحث قد وصل بالعقول الى ألا أمل فى النهوض ولا رجاء فى الحياة. ذلك هو ظن أوربا الذى ظنته فى الشرق ونهضته فقادها لسلوك هذا السبيل وانتهاج هذا المنهج

فى البلاد الاسلامية نهضة عالجتها أوروبا بما فى استطاعتها من صنوف العلاج الممكنة. عالجتها بالشدة وعالجتها باللين. فما فازت ولا نجحت. ولو أنها كانت نهضة مصطنعة وغير متصلة بأسباب مكينة راسخة لما استطاعت أن تقاوم ضغط أوروبا، ولما تمكنت أن تنجو من دسائسها

وتخلص من حبالها. ولاريب أن نجاحها فى تلك المقاومة يدل دلالة بينة على أن لها كيانا ثابت الدعائم . وأن فيها حيوية غير قابلة للتلاشى والاضمحلال ، وأن بها من الخصائص والمميزات مايصلح لمقاومة أى ضغط ينالها واعتداء يقع عليه. أمارات ودلائل ترشد الى أن لنهضة المسلمين فى الوقت الحاضر ما لكل نهضة ناجحة من خصائص الحياة ومميزات البقاء ودلائل النمو . ونهضة على مثل تلك الصفة لا يمكن العقل البشرى أن يتصور أنها ما نشأت الا بعد الهدنة وما كانت الا من آثار ما انتشر فى العالم من مبادىء ولسن، وما عقب الحرب العامة من الاضطرابات التى تناولت كثيراً من أمم الارض وشعوب العالم . ومهما يكن من الامر فان من المسلم به لدى كل باحث منصفاً كان أو غير منصف. شرقيا كان أو غربيا، سياسيا كان أو اجتماعيا. أن فى العالم الاسلامى نهضة . وأن ما كان به من تطور قد نما نمواً خطير الشأن فى بعض الجهات ، ودخل فى دور الاكتمال فى بعض آخر وأن خصائصه فى كل جهة متشابهة وآثاره متماثلة. واتحاد

الخصائص يدل على اتحاد ماهية الحركة. وتماثل الآثار ينبيء باتحاد المنشأ. فهل تتحد تلك الحركات يوما من الايام اتحاداً عملياً يشمل جميع انحاء العالم الاسلامى، فيأخذ الناجح فيه بيد أخيه الذى يسعى للنجاح، ويصبح الجميع اخوانا يتعاونون على الخلاص ويعملون لتحرير بلادهم من كل سلطة أجنبية؟

وهل يسترد المسلمون سيرتهم الاولى ويسترجعون مكانتهم السابقة؟ وهل اذا نجوا من ضغط أوروبا ودسائسها يقدر لهم أيضا أن ينجوا من خطر القومية التي ساعدت سياسة الاستعمار على نشرها بين بعض أمم المشرق؟ وهل يستطيع رجال النهضة الحاضرة أن يوفقوا بين ماتقتضيه الاخوة الدينية وبين ما تطلبه الوطنية القومية، فيحولوا اخوتهم الدينية الى تعاون ينتظم جمعية من الامم متوحدة فى الدين والغاية والمطلب، فتنال القومية نصيبها فى الحياة ويفوز الاسلام بمطلبه فى الوجود؟. وفى حركة الهند مايدل على انه يمكن التوفيق بين فكرة الاخوة الاسلامية وبين الفكرة القومية. وفى موقف أوروبا حيال حركة الهند

الاسلامية القومية وحركة مصر الوطنية آيات ، براهين على أن ما كانت السياسة تذيعه من أن أوروبا تستطيع أنصاف الحركات القومية، ولكنها لا تستطيع أن ترى أية حركة اسلامية ، خيال زائل ووهم باطل . فلقد اتحد موقف أوروبا حيال الحركتين على سواء ، فما أنصفت مصر لانها قامت بحركة قومية . ولا غضبت على الهند لانها تدين بفكرة اسلامية . ولقد قمعت بريطانيا كلتا الحركتين بقذائف متساوية فما رأفت بمصر لان بها حركة وطنية ، ولا قست على الهند لان فيها حركة دينية بل تساوت سياسة القمع فى مصر وفى الهند ثم تشابهت فيهما سياسة اللين واتحد موقف أوربا حيال الاثنتين اتحد موقف الصحافة ، واتحد موقف الاندية السياسية واتجه اتجاه نظر الجالسين فى المؤتمرات المتعددة . فما عطف أحد منهم على الحركة الوطنية لانها وطنية ، ولا قسا ظالم منهم فى حكمه على الحركة الدينية لانها دينية ، بل اتجه نظر الجميع لتنفيذ المقاصد الاستعمارية باللين تارة ، وبالشدة تارة أخرى ، بدون التفات الى صفة الحركة

ومميزاتها الظاهرة . كل ذلك يدل على ان تخوف قصار النظر من اصطباغ أى حركة فى الشرق بالصبغة الدينية، وتوهمهم أن أوربا سيختلف حكمها الاختلاف اوصاف الحركات فى الشرق ضلال حل بعقولهم من وراء الانخداع بما نشره سياسة الغرب، وبثته دوائر التمويه فى أوربا

ولعل ما كشفته لنا الحوادث من عدم تحقق المخاوف التي كنا نتوهمها ، والتى خدعنا بها زمناً غير قليل، يرفع عن أبصارنا غشاوة الجهل . ويهدينا الى سواء السبيل فى تفهم الحوادث، ويحول بيننا وبين قبول الانخداع مرة ثانية . ففيما مضى عبرة وفيما هو واقع بيننا اليوم عظة . وعسى أن يكون لنا من تلك التجارب هاد ومرشد . ومن تلك الاختبارات واعظ ومزدجر . فلا نكون فتنة للغرب ومحل اختبار وتجربة لاوربا، كما هدانا الله الى ذلك فى قوله (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم)

ان نهضة المسلمين من المسائل التى وضعت اليوم تحت

البحث فى الدوائر السياسية وبين يدى الكتاب والمفكرين فى أوربا وفى الشرق. فهل يمكن وضعها عمليا بين يدى التنفيذ وتحت نظر العاملين، فيكون للباحثين من نجاحها فى التطبيق ما يبرهن على أن ما تخيلوه من عدم نجاحها وهم باطل وخيال زائل. وتكون خيبتهم حيال نجاحها كخيبتهم حيال نجاح البلشفية فى روسيا، مع ما بذله خصومها لعوقها وتعطيل نموها؟ على أن ما قاله ساسة الاستعمار بشأنها ونشروه من البحوث المتعلقة بأنها خيال لا يتحقق وضلال فى النظر سوف تخذله التجربة ويقضى عليه سير الاجتماع ويذيبه ضغط الحوادث وتمحوه طبائع الوجود البشرى.. دعوة سياسية يراد نشرها لافساد أمر الاشتراكية وتنفير الناس منها وحملهم على الاقتناع بأنها أمر لا يتحقق وتصور يستحيل أن يوجد

فهل ترينا الايام نجاحا للحركة الاسلامية يقضى على جميع ما أذاعه المرجفون فى العالم ونشره المضللون من رجال السياسة وانتصره بعض القانطين من ساسة المشرق

واقتنع به بعض ذوى الاغراض الشخصيـة من خـدام الاستعمار فى البلاد الاسلامية ؛ !

* * *

ان دوام الحركات الاسلامية التى تنمو اليوم وتترعرع فى كثير من أجزاء العالم الاسلامى معقود بوجود أساس تقام عليه دعائمها الاساسية. وذلك الاساس هو الدين الاسلامى الحنيف. لاتفاق الجميع على الايمان بتعاليمه والخضوع لأوامره ولان فيه من الوصايا المتعلقة بتكوين الامم والأوامر المختصة بتحديد غاية للجميع تهدى الى العمل وتقود للنجاح ماهو كفيل بحفظ الحركات من التراجع، وحمايتها من الطوارىء، وصيانتها من التلاشى

ولقد برهنت الحوادث على أن للعقائد الثابتة الأثر كل الاثر، والفضل كل الفضل فى تثبيت دعائم النهضة وتوطيد أساس التقدم وتمكين أسباب النجاح. وفى العالم الاسلامية الف ضمان وضمان يجعل نهضة المسلمين الحاضرة قائمة على عقائد ثابتة وأخلاق قوية راسخة ومبادىء مكينة

فاضلة . وفى تاريخ الصدر الاول مايدل على أن سر نجاح المسلمين يرجع أولا وبالذات الى ما كان لهم من الاستمساك بالعقائد الدينية، فلقد وضعوا تعاليم الاسلام أمامهم كبرنامج للحياة وجعلوا اطاعة التعاليم الاسلامية فريضة مقدسة، فما دعا اليه الاسلام أجابوه وما أمر به أقاموه وما نهى عنه اجتنبوه ، دعاهم الى أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتحافظ على حدود الله وتجاهد فى سبيله بالمال والنفس، فكانوا عند ما دعاهم اليه : غاية واحدة وبرنامج واحد . استماتة فى سبيل المقصد . واستقتال لتنفيذ البرنامج . ايمانهم بالجهاد كايمانهم بالصلاة وسعيهم له كسعيهم اليها، ومحافظتهم عليه كمحافظتهم عليها، فما فرقوا بين ماجاء فى الصلاة وماجاء فى شؤون الحياة . آمنوا بالجميع وعملوا لتحقيق الجميع فاستقامت لهم شؤون الدين والدنيا وتم لهم ماوعد الله به فى كتابه اذ يقول (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى

لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً)

تحقق وعد الله للمسلمين يوم كان الاسلام اسلاماً والمسلمون مسلمين حقاً ،فهل ترينا الايام ذلك الوعد وهو يتحقق للمسلمين مرة ثانية فيصبحوا خلفاء الارض ويبدل الله خوفهم فيها أمناً ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم فتحرر بلادهم ويستقلون فى شؤونهم ويستقيم لهم أمر الملك كما استقام لسلفهم وتضع المقادير أعنة الدنيا فى أيديهم مرة ثانية بعد أن انتزعتها منهم أحداث الدهر ،وسلبتها يد الحدثان ؟؟

هل يكون المسلمين وحدة يتحقق لهم فيها محيط خاص تتشابه فيه جوانب الحياة : غاية واحدة وميول متماثلة وتصورات فى شؤون الحياة متشابهات، وآمال فى المستقبل غير متخاذلة . الهم واحد،وقانونهم فى الحياة واحد واتجاههم الى الله واحد وسعيهم نحو العلا وتطلعهم للسعادة ورغبتهم فى احراز المجد، كل اولئك متشابه غير متنافر ينتقل المسلم منهم من ناحية الى اخرى كما ينتقل فى غرف

المنزل الواحد . عقائد وعبادات وآداب وعادات وآراء وميول وآمال كلها واحدة غير مختلفة ولا متخاذلة . كما قال نبيهم (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) وكما قال كتابهم (انما المؤمنون أخوة . ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) ؟؟

ان فيما نحاول بحثه فى الفصول الآتية ما يمكن أن يكون جوابا عن تلك الاسئلة . فلعل الله يهدينا الى سواء السبيل فيما نحاول بحثه ويوفقنا الى الصراط المستقيم فيما نريد تحليله والنظر فيه انه على كل شىء قدير

وحدة العقيدة وعلاقتها بالوحدة الاسلامية

ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

(٭)

فى هاتين الآيتين اشارة الى ما يقرره سير الوجود

البشرى ، واتفق عليه الباحثون فى شؤون الاجتماع : من أن الامم لا تستطيع أن تحدث انقلابا فى سيرها فى الحياة الا اذا غيرت مالها من أفكار وما بنفوسها من أخلاق ، وما بمشاعرها من ميول . لان حالها فى الوجود تتغير تبعا لتغير مناشىء تلك الحالة ، وتختلف لاختلاف أسبابها : فللتقدم وسائل وللحياة أسباب وللتأخر علل وللموت مقتضيات

غير المسلمون ما كان لهم من وحدة دعا اليها القرآن ووضع أساسها العملى صاحب الشريعة ، وتم بناءه خلفاؤه الراشدون ، واحتفظ بها من جاء بعدهم قرونا متطاولة تبدلت فى أواخرها حالة المسلمين العقلية والاخلاقية . فبدل الله ما كان لهم من عز أنتجته الوحدة . وغير لهم ما كان من شوكة أقامها الاتحاد على أمتن أساس وأرسخ قاعدة

عدت المذاهب التى ابتدعتها الفرق فيما يختص بالقضاء والقدر وفيما يرجع الى مسألة الامامة وفيما يتعلق بمسألتى الدعاء والتوكل وفيما يرجع الى مسألة الصفات الخبرية والى بعض مسائل أخرى ألصقوا جميعها بالعقائد والحقوها بعلم

الكلام ، عدت تلك المذاهب على وحدة الامم الاسلامية في العقيدة، فانحل ما كان لها من قوة وانفرط ما كان بها من نظام . ثم أهملت التعاليم التي حث عليها الكتاب فيما يتعلق باحياء العقائد الملية . وغرسها في النفوس غرسا يملأ القلوب خشية من الله . وتعظيما لاوامره واستشعارا لجلاله. ورهبة من سطوته ورغبة في طاعته . وخوفا من انتقامه . وحبا في نيل رضوانه . وما الى ذلك مما عرف المسلمون في صدر الاسلام مزيته فانتفعوا به انتفاعا أحيا العقائد في نفوسهم فنمت وترعرعت وأثمرت ثمراتها المعروفة

ولو أن هذا الاهمال كان غير مقترن بما أصاب العقيدة من وراء نشر تلك المذاهب المبتدعة لكان كافيا في اضعاف العقيدة وجعلها تصورات علمية غير مؤثرة في المشاعر ولا مرتبطة بحياة القلوب ولا كافية للتأثير في سير الحياة. ولكن شاءت الاقدار أن تهمل التعاليم القرآنيه المختصة بتعليم العقائد كما شاءت أن تصاب وحدة العقيدة بانتشار تلك المذاهب التي مزقت عقيدة الامة ونالت من وحدة العقيدة

ان القرآن لا يزال غضا طريا ، واحترام المسلمين له لم ينقص ولم يتبدل ، وقد دعا في غير ما آية الى وحدة العقيدة والى الاعتصام بحبل الله والى عدم التفرق ، وفيه من التعاليم ما يكفي لتحديد العقيدة ولاثباتها ولاقامة الدلائل الكونية التي لا تتبدل أبد الدهر على صحتها ، فلا حاجة للمسلمين ، ماداموا يريدون الاهتداء بكتاب الله ، الى تلك المذاهب التي فرقت دينهم وجعلتهم شيعا ، وأضعفت أهم العقائد تأثيراً في مجاري الحياة العامة لديهم . كمسألة القضاء والقدر ، ومسألة الامامة ، ومسئلة التوكل

عليهم أن ينبذوا ما أحدثته المذاهب بشأن تلك المعتقدات . وأن يرجعوا الى ماورد فيها من التعاليم القرآنية ففيها الهداية . وفيها العصمة من التفرق . وبها تعود الوحدة في العقيدة الى الحالة التي يريدها صاحب الشريعة ويرضاها الاله جل شأنه

ان المسلمين لم يختلفوا في وجود الله ولا في قدمه ولا في بقائه ولا في وحدانيته ولا في علمه ولا في ارادته ، ولا في

حكمته ولا فى رحمته ولا فى مسائل السمع والبصر والكلام. وما كان اختلاف تلك الفرق الا فى مسائل ألصقوها بالعقائد وهى ليست من الاسلام فى شىء، فلننبذها اليوم ظهريا. وفى كتاب الله غنى عن كل ذلك . وما دامت العقائد الاساسية موضع اتفاق ومحل اجماع فلتكن هى معقد وحدة الامة ولنترك مواضع الشقاق اليوم جانباً . وان أردنا فهمها والبحث فيها، ففيما ورد فى القرآن بشأنها مافيه غناء وكفاية. ومادامت حاجة المسلمين اليوم تتطلب الوحدة ،وتقتضى نبذ الخلاف فما علينا من ضرر اذا تركنا كل ما حدث بعد القرن الثالث وحصرنا ايماننا فيما ورد فى كتاب الله لانه هو المعصوم فى المسائل الاعتقادية ولنترك آراء الرجال جملة

فلقد مضت حياة المسلمين فى عهد الرسول وفى عهد الخلفاء الراشدين ،وهى خالية من تلك المذاهب ،منزهة عن تلك البدع . ولسنا نطمع فى ايمان يفوق ايمانهم . ولا نرجو من رضوان الله مالم يرجوه فى زمانهم

اذا نبذت تلك المذاهب ورجع المسلمون الى القرآن وحده

فى تعاليم العقائد، تحققت لهم وحدة العقيدة . وكان لهم من انتهاج منهجه فى غرس العقائد وتثبيتها فى النفوس حياة عقلية تكون فيها أفكارهم وتصوراتهم حية مثمرة لها تأثير فى النفوس واتصال بالمشاعر وهيمنة على الاخلاق تدعوهم الى العمل لما دعت اليه الشريعة من أعلاء كلمة الله والاستماتة فى سبيل تأييد دينه. وما انتصر المسلمون فى صدر الاسلام الا بقوة العقيدة ووحدتها . وما كانت قوة العقيدة الا من قوة التربية التى غرستها وأشرفت على نموها ووضعتها على حالة تضمن لها النمو والحياة المثمرة ، وما كانت وحدتها الا لتوحد المصدر الذى اهتدت به الامة فى تكوين تلك العقيدة

كان القرآن بمنزلة القانون الاساسى لهم فى تكوين العقيدة. وما كان يمكن أحداً منهم أن يحيد عنه قيد شعرة وكان النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يقومون فى حياطته مقام القوة التنفيذية على حياطة القانون الاساسى اليوم ، من أجل ذلك نجت وحدة العقيدة من خطر الانقسام ومن خطر التكون على حالة غير صالحة للنمو والتأثير فى مجرى

الحياة: لا ابتداع فى العقيدة ولا اهمال فى تربيتها

فهل للمسلمين اليوم من عودة الى انتهاج هذا المنهج؟؟

هل لهم أن ينتفعوا بحوادث التاريخ وعبر الايام ومواعظ الدهر، فيعمدوا الى التزام خطة واضحة فى توحيد العقيدة وفى تربيتها ؟؟هل لهم أن يحددوا برنامجاً للعقيدة تقوم على صيانته قوة تحميه من الابتداع وتحول بينه وبين خطر المذاهب الضارة . داخلية كانت أو خارجية ؟ وهل لهم أن يضعوا نمطا للتربية على نظام ما دعا اليه القرآن يكون كفيلا بجعل تربية العقيدة قائمة على أساس يؤثر فى المدارك ويرتبط باعمال الحياة ،فتكون لهم وحدة فى العقيدة ، وتكون لهم عقيدة مؤثرة فى مجرى التاريخ ؟؟

ان أمامنا كتابا يهدى الى الرشد . وتاريخا للرسول يبين كيف أمكن تحقيق ما دعا اليه القرآن على نظام عملى مثمر . وبين أيدينا سيرة للخلفاء الراشدين تحقق فيها شكل كامل للحياة الاسلامية طبقت فيه جميع التعاليم الاسلامية وفى ذلك آيات بينات على أن من الممكن تطبيق التعاليم

الاسلامية مرة ثانية . وان ماينشر دساسة الغرب الدساسون ويميل اليه القانطون من أهل المشرق: من أن لكل عصر مقتضيات ، وان مقتضيات العصر الحاضر لا تسمح باعادة تلك التجربة مرة ثانية! خطة مدبرة ودعوة يراد بها نشر اليأس فى قلوب المسلمين وحملهم على القنوط من رحمة الله وجرهم الى انتهاج منهج فى الوجود يكونون فيه مذبذبين بين الغرب وبين الشرق ! لاهم مسلمون يعملون بجميع ماورد فى الاسلام ! ولاهم غربيون يدينون بجميع ماتدين به أوروبا من العقائد والاعمال وشؤون الحياة !! وفى ذلك من الخطر على الوحدة الاسلامية مانشاهد آثاره اليوم من الاختلاف بين الطبقة المتدينة والطبقة التى خدعتها خطة أوروبا. ولا نجاة من هذا الانقسام، ولامخرج من ذلك المأزق الا بانتهاج منهج القرآن فى تكوين العقيدة وتوحيدها ليكون للمسلمين مقومات ملية ، وخصائص تميزهم من غيرهم حينما يراد تمييز الامم وتحديد مقومات كل منها وخصائصه

فهل للمسلمين ان يغيروا ما بهم حتى يغير الله حالتهم الحاضرة فيستخلفهم فى الارض ويمكن لهم دينهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا ؟؟؟

المبادىء الاساسية للوحدة الاسلامية

بينا فى الفصل الماضى أن الوحدة الاسلامية تتوقف على توحيد العقيدة وعلى تكوينها تكويناً يجعلها منتجة فعالة . ونريد فى هذا الفصل أن نذكر جملة من المبادىء التى يتوقف عليها أمر تلك الوحدة وهى .

(١) احياء الاخوة الاسلامية

(٢) احياء الاهتداء بالقرآن (٣) تنظيم المعارف الاسلامية (٤) احياء فروض الكفاية (٥) احياء طاعة الامام (٦) تقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة (٧) القيام بفريضة الجهاد حسب أوامر الشريعة

وسنتكلم على كل مبدأ منها على حسب هذا الترتيب

الاخوة الاسلامية

جاء فى سورة الحجرات: « انما المؤمنون اخوة » وجاء

فى سورة التوبة « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله . أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » وجاء فى سورة الفتح « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار . رحماء بينهم » وقال صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله » رواه مسلم

وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

الى غير ذلك من الآيات والاحاديث التى وردت فى هذا الشأن وهى تدل فى جملتها وتفصيلها على أن الاسلام يعتبر المسلم أخا للمسلم ووليا له ينصره ولا يخذله، يؤيده ولا

يسلمه . وان واجباً على كل مسلم أن يحي فى نفسه هذا المبدأ ، وأن يعود نفسه القيام بما يطالبه به من الحقوق والواجبات فيؤديها لأخيه المسلم أينما وجد وحيثما كان، لافرق بين من يساكنه فى وطنه ومن هو مقيم فى ناحية أخرى لان الاسلام لايعترف بحدود القومية ولا بمقتضيات العصبية . وهو يقول بصريح العبارة: «ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»

لاجنسية فى الاسلام ، ولا قومية فى نظر القرآن، لان الاسلام فوق حدود الاوطان وتخوم الاقطار . هو دين ماجاء الا ليوجد بين المؤمنين رابطة تقوم مقام رابطة الوطن، وينشىء بينهم عصبية تحل محل التعصب للجنس ، يريد أن يكون لهم محيطاً تتوحد فيه العقائد والاخلاق وجميع الانظمة السياسية والمالية والادارية وحقوق التعامل، ويقيم لهم من هذا المحيط وطناً خاصاً ينعمون تحت لوائه ويتعصبون لمن يسكن فيه، فحدود الاسلام هى حدود الوطن لديهم، وكل

ما احتوت عليه تلك الحدود فهو من المناطق التى يجب عليهم حمايتها ودفع العدو عنها ، ووضع أرواحهم على أكفهم ، وأموالهم بين أيديهم لصيانتها والذود عن أعلامها ومعالمها. بذلك تقضى الشريعة الاسلامية ، وعلى ذلك درج المسلمون الاولون والسلف الصالحون رضوان الله عليهم أجمعين

ان الاخوة الاسلامية من الاخلاق التى تأصلت منابتها بين المسلمين حتى أصبحت خلقا يشبه الاخلاق الموروثة يرثها الولد عن أبويه ويتلقاها من الاوساط التى يعيش فيها وكان للمساجد والمنابر والعلماء والوعاظ والكتاب والشعراء والامراء عناية بتربية هذا المبدأ وتكوين هذا الخلق وتنظيمه حتى يصبح قادراً على تأدية وظيفته التى يريدها منه الاسلام

كان للعلماء حرص على نشر الاخوة فى دروسهم ومجالسهم الخاصة ومؤلفاتهم الدينية . سبقهم الى ذلك الكتاب وتقدمهم صاحب الشريعة ، وفيه الاسوة الحسنة ، ومن الواجب على العلماء الاقتداء به فكم عالج الاخوة وكم عمل لها وكم أزال

العراقيل من سبيلها. ولم يمت عليه أفضل الصلاة وأتم السلام حتى بينها بالقول في خطبه وأحاديثه، وحددها بالعمل في أنظمته وتراتيبه، واقتدى به الخلفاء الراشدون فكانت عنايتهم بالوحدة لا تكاد تقف عند حد، ودرج على ذلك من جاء بعدهم. وكان المسلمون يدينون بهذا المبدأ قولا وعملا: فأموالهم تنفق في سبيل حماية الحدود الاسلامية لافرق بين ما كان منها بأقصى المشرق وما كان منها بأقصى المغرب، وكانت أرواحهم تباع في سبيل الذود عن حياض الملة وكفالة التخوم الاسلامية لافرق بين ما كان منها بأقصى الجنوب وما كان منها بأقصى الشمال، لان الاسلام وطن الجميع والمسلمون جميعا أخوة والمؤمنون بعضهم أولياء بعض، على كل منهم أن ينصر أخاه وأن يدافع عنه، وأن يعمل لتمكينه في الارض وحماية ماله ونفسه وجعله في مأمن على استقلاله وحريته. ذلك شأنهم يوم كان الاسلام اسلاما، والمسلمون مسلمين

حقا كان للعلماء عناية باحياء هذا المبدأ فما قرأنا كتابا من كتب الصحاح أو السنن أو الاسانيد الا وجدنا فيه أبوابا

يدون فيها ما روى عن صاحب الشريعة من الامر بالاتحاد ومن النهى عن التفرق وما الى ذلك مما يرجع الى احياء مبدأ الاخوة بين المسلمين بعضهم مع بعض . ومادونوها فى الكتب وذكروها فى المصنفات الا لحفظ ما ورد عن صاحب الشريعة ، وحمل الناس على العمل به لانه من سنن نبيهم القيمة . حقا انهم مادونوه للتبرك وما كان جمعهم له لمجرد التبرك بما قاله صاحب الشريعة لان تلك الفكرة لم تكن موجودة فى عصر العمل بالشريعة وانما وجدت بعد ان ذهب العلماء وخلف من بعدهم خلف يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه . الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب الا يقولون على الله الا الحق ودرسوا ما فيه . والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا يعقلون

فهم العلماء فى صدر الاسلام كلام الله وكلام رسوله وعرفوا مراميهما وأدركوا مقاصدهما حق الادراك ثم عرفوا وظيفتهم التى أمرتهم بها الشريعة ورغبوا رغبة صحيحة فى القيام بها كاملة فجمعوا بين العلم والعمل فاستقامت لهم أمور

الدين والدنيا وفازوا بسعادة الدارين :أولئك سيرحمهم الله

عرفوا أن الاسلام اذا خاطب، خاطب الامة الاسلامية لافرق بين أمره ونهيه، وأدركوا ان ذلك منه اشارة الى أن الامة هى المكلفة وهى المطالبة وهى المأمورة وهى المنهية وانها متى دعيت أجابت اذا توفرت شروط الدعوة .عرفوا ذلك وعرفوا أن عليهم ان يبينوا للناس وأن يهدوهم الى الصراط السوى

فتوجهوا لاحياء الامم وتنبيه الشعوب وتركوا دوائر الامراء جانباً لعلمهم أن الامة متى علمت ومتى تنبهت فسوف يجبر الامراء على أن يقفوا عند ماحددته الشريعة وطالبهم به الكتاب ،وكان لهم من المساجد مؤتمرات دائمة ووجدوا أن الشريعة أغنتهم عن التفكير فى الوسائل . فما عليهم الا الدعوة فلقد أمرت الشريعة كل مسلم بأن يتوجه الى الصلاة وأن يحضر الجماعة وأن يشهد الجمعة وأن يطيع أوامر العلماء . وسائل محكمة، وهى فوق كونها محكمة مصبوغة بالصبغة الدينية . وخير الوسائل ما كان محكماً ودائما ومبنياً

على أساس ثابت لا يتزعزع. وذلك كحضور المسلمين للصلاة واجتماعهم فى المسجد وشهودهم للجماعة واجتماعهم للجمعة. عرف العلماء مقدار ما عملته الشريعة من التسهيلات لجمع الناس وحشدهم لهم، فكأنها أعطتهم سلطانا يفوق سلطان الملوك. لان سلطان الملوك مهما عظم فهو غير نافذ الى القلوب ولا واصل الى المشاعر. أما سلطان العلماء فهو على القلوب وعلى الاجسام. سلطة عرفها العلماء فى صدر الاسلام فانتفعوا بها، وكانوا كل شىء فى الدولة وفى الامة

وما عرف التاريخ سلطانا تخضع له الناس بغير مال ولا جند، وبغير سيف ولا مدفع، وبغير رغبة ولا رهبة سوى سلطان العلماء فى صدر الاسلام؛ كانوا كالقوة التشريعية التى تخضع لها أوربا اليوم. وكان لهم فوق ذلك الاستفتاء فى العقائد والاخلاق وسائر فروع الحياة. فكانوا مرجع الامة فى كل شىء وكانوا مرجع الولاة فى كل أمر، لذلك ترى القرآن يعظم شأنهم ويعدهم أجرا عظيما اذا عملوا، ويهددهم بأقسى عقاب، وأسوأ مصير، اذا أهملوا البيان، وتركوا الامة

فى جهالة

من هنا يمكن الباحث فى تاريخ الاسلام أن يفهم وظيفة المساجد وما كان لها من التأثير فى حياة الامة الاسلامية يوم كان العلماء علماء ومتى قارن بين وظيفتها فيما مضى وبين وظيفتها اليوم تبين له حال العلماء فى الصدر الاول وحالهم فى الايام الاخيرة، وأدرك معنى قوله تعالى « وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا » فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا »

توجهت عناية العلماء فيما مضى لتعليم الامة ماورد فى الشريعة وتنبيههم الى مادعت اليه وكان للواجبات درجات عندهم، وكان أهم تلك الواجبات أمر الوحدة الاسلامية، لان القرآن مملوء بالدعوة الى الوحدة وبالنهى عن التفرق ولان سيرة الرسول كانت قائمة على تنظيم أمر الوحدة وعلى لم شمل الجماعة، ولان طبيعة الاسلام قائمة على أن يكون المسلم أخا للمسلم، لانها وحدت جميع الحقوق وساوت بين أفراد الامة

فى جميع الواجبات ، فما فضلت أحداً على أحد وما جعلت لفرد ميزة على فرد بل جعلت الكل اخواناً وهيأتهم لغرض واحد :هو اعلاء كلمة الله

ان اعلاء كلمة الله غاية الديانة الاسلامية ، ولا يكون هذا المقصد ولا تتحقق هذه الغاية الا بالوحدة ، فعليها يتوقف نجاح الاسلام

من أجل ذلك اهتمت بها الشريعة أيما اهتمام . اهتم بها الكتاب ، واهتمت بها السنة ، واهتم بها الخلفاء الراشدون ، واهتم بها العلماء المهديون ، وما كانت المنابر الا وسيلة من وسائل الدعوة الى الاتحاد ، وما كانت الا لحث جماهير الامة على الغاء الفوارق ونبذ العصبية وسائر ما يفضى الى الامتياز والتفاضل لتتحقق ماهية الاخوة ، وكان للوعظ عناية بتلك الاخوة ، وكان للشعراء والكتاب حرص على نشر هذا المبدأ وكان لدوائر الحكومة الاسلامية اهتمام خاص بصيانة وحدة الامة وما شرع قتال البغاة الا لتحقيق هذا المقصد وما كانت الامامة الا لصيانة تلك الغاية ، وهل الخلافة - وى

رمز لمعني الوحدة ؟ وهل وجبت طاعة لامام الا لتحقيق ذلك المبدأ؟ وما كانت طاعته مفروضة على فرد الا لمنع الفرقة وتنظيم أمر الجماعة . الخلافة واحدة ليتحد مصدر السلطة والكتاب واحد ليتحد مصدر التشريع ، والمساجد واحدة لتتحد أمكنة العبادة. وحدود الله واحدة ليتساوى المسلمون وفي المساواة تحقيق لمعني الوحدة . حدود البلاد الاسلامية واحدة في وجوب الدفاع عنها على كل مسلم لتصان الوحدة وابن السبيل أينما سار فهو يسير بين اخوته وأخواته ، أينما حل يجد عادات تماثل عاداته وأنظمة تماثل أنظمته ومشاعر وادابا وآراء وتصورات في الحياة تماثل مالديه، لا يشعر بغربة ولا يحس بأنه في غير بيته

فهل يوجد نظام للوحدة كهذا النظام؟ وهل كان تشريع لتحقيق الاخوة يماثل هذا التشريع ؟

عمل المسلمون بما أمروا به لتحقيق أمر الوحدة يوم كانوا مسلمين . فكانت لهم وحدة تشابهت فيها جوانب الحياة، وبذلك أبرزوا تلك الفكرة الى حيز الوجود، فمن

يدعى أنها فكرة خيالية أو أنها غير قابلة للوجود أو أن مقتضيات العصر الحاضر لا تسمح بظهورها مرة ثانية، فهو محجوج بالتاريخ، والتاريخ أعدل حاكم وأصدق ناطق

ولعل قائلا يقول: ان فى تحقيق الاخوة فى هذا العصر قضاء على فكرة القومية ومحوا لمعالم الوطنية، ثم هو فوق ذلك رجوع الى عصور مضت وأفكار بليت وهل الاخوة الاسلامية الا نوع من الامبراطورية ؟

ومقتضيات العصر الحاضر تنافر هذا المبدأ وآراء المدنية الجديدة لا تؤيد الا مبدأ القومية، فان أوروبا ما ارتقت الا بعد أن قضت على فكرة الاخوة المسيحية ونبذت فكرة الامبراطورية المقدسة واعتنقت مبدأ القومية الناهض المنتج

ان الرجوع الى فكرة الاخوة الاسلامية رجوع الى نظام استبدادى لا أثر فيه للحرية، نظام يجعل طبقة حاكمة وأخرى محكومة، طبقة غالبة وأخرى مغلوبة، طبقة سيدة وأخرى مسودة، نظام ينتهى بحصر السلطة فى أيد خاصة تحت اسم الاخوة الاسلامية ان نظاما كهذا يناقض الاراء

الجديدة والمبادىء المستحدثة . وهو فى ذاته نظام رجعى لا يستطيع مماشاة المدنية الحاضرة

يمكن أن يقال ذلك باخلاص، وأن يصدر هذا القول من قوم مخلصين، ويمكن أن يقال بوحى أوربى ومن قوم متأثرين بالدسائس الاجنبية . وسواء أكان هذا أم ذاك فان جميع ماقيل فى هذا الايراد، وجاء فى هذا الاعتراض لاصلة له بمعنى الاخوة الاسلامية ولا ينطبق على مايقضى به ذلك المبدأ

المسلمون اخوة، وفوق ذلك بينهم موالاة ورحمة ومتى نظرنا الى هذا المبدأ والى ماأمرت به الشريعة من المساواة وعدم التفاضل . وخضوع الجميع لما جاء فى الشريعة لافرق بين الراعى والرعية والامام والمأموم والخليفة وأى فرد من أفراد الامة تبين أن مبدأ الاخوة ان تحقق تحققت معه أمة تتساوى أفرادها جميعا أمام شريعة واحدة شريعة تفوق جميع الشرائع فى الخلو من السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ومن اعتبار القائمين بها فوق القانون . ولا أدل على ذلك

من قوله تعالى . (يأيها الذين أمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين . ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وأن تلوا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً) (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » « ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل » « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

وقوله صلى الله عليه وسلم « ليس لعربى فضل على عجمى ولا لعجمى فضل على عربى الا بتقوى الله » الى غير ذلك من الايات والاحاديث الدالة على أن المسلمين تتكافأ دماؤهم وأموالهم ، ويسعى بذمتهم ادناهم . فهم متساوون فى الحقوق وفى الواجبات . وصالحون أمام الشريعة لتولية المناصب والعروج فى معارج الرقى الاجتماعى . غاية الامر ان الاثر

الذى يترتب على تلك الاخوة ترتيباً ظاهراً هو اشتراك الجميع فى الدفاع عن أى بلد اسلامى يراد احتلاله والقضاء على استقلاله ، فنتيجة تلك الاخوة كنتيجة التحالف الذى تصنعه السياسة الدولية اليوم . وكل ما فى الامر ان التحالف السياسى أثر من آثار توافق المصالح فى ظروف خاصة. فهو ضرورة وقتية . ولما كان الاسلام دينا يأمر جميع معتنقيه بأن تكون لهم غاية واحدة تجتمع حولها مقاصدهم العامة وكانت تلك الغاية دائمة، وكان دوامها سببا فى توحيد المصالح العامة باستمرار كانت نتيجة الاخوة الاسلامية، وهى التحالف على دفع العدو . أمرا دائما غير منقطع وكانت مبنية على توحد المصالح الدائم وكانت قائمة على تماثل المشاعر وتشابه الافكار. فما تلجأ اليه السياسة عند الضرورة أمر به الاسلام كقاعدة عامة للحياة الاسلامية . فهو تحالف فى دوائر الحكومة وتحالف فى المدارك، وتحالف فى القلوب، وتحالف فى مناشىء العبادة . تحالف موروث . تحالف يلحق الامور الطبيعية فله خصائص الاخلاق الثابتة والطبائع المتأصلة فى النفوس

هو من الملكات اللاشعورية يحس به المسلم كما يحس بسائر الامور الوجدانية من الميل والنفور والجوع والعطش . نظام صنعه الاسلام ، فهو من صنع الاله لا من صنع الدوائر السياسيه

واذا كان فى مصر من يرى أن من الممكن الجمع بين الاستقلال التام وبين الاعتراف بالمصالح البريطانية التى لا تنافى الاستقلال ، وأن من تلك المصالح عقد محالفة مبنية على المساواة ، اذا كان هذا غير ضار بالقومية ولا مؤثر فى طبيعة الوطنية المصرية ، فلم لا يجوز أن يكون تحالف المسلمين تحالفا ناتجا عن الشعور بالاخوة غير ضار بالقومية ولا ماس بالوطنية ؟ ان معنى القومية هو أن يعيش الانسان فى بلده آمنا على ماله ونفسه متمتعا بجميع ما له من الحقوق والخصائص فمتى تم ذلك تم أمر القومية ولا يضرها بعد ذلك تحالف مع أمة أخرى أو اتفاق مع شعب آخر . والاخوة الاسلامية ليست أمراً وراء هذا التحالف وذلك الاتحاد . اذا سالت دماء الامم المختلفة فى الميدان الغربى وعلى ضفاف

الدردنيل ؟ كانوا يقولون أنها سالت لدفع العدو المشترك ونصر القضية المشتركة . كان ذلك يقوله الحلفاء يوم وضعوا أرواح أممهم وأموال شعوبهم بين يدى تلك القضية ليتم لهم النصر فهل كان ذلك حادثا غير طبيعى : ما كان أمراً بدعا ولا حادثا شاذا . بل كان أمراً قضت به ضرورة صنعتها السياسة ثم زال الاتحاد لانه كان غير مؤسس على اتحاد القلوب والمدارك . لكن الاخوة الاسلامية دامت الى اليوم ، بيد أن أثرها كان معقوداً بوضعها على نظام يجعلها فعالة ومنتجة . ولولا ماصنعه الامراء من التفريق . وأوجده العلماء من الاختلاف والتنابذ ، لكان للمسلمين اليوم تحالف حربى تذل أمامه أوربا وتخزى ؟

ان عظمة الامبراطورية البريطانية ما كانت الا من اليوم الذى وجدت فيه وحدة صناعية بين لندن وبين جميع المستعمرات الانجليزية

ولقد حاولت السياسة أن يكون لتلك الامبراطورية شبه وحدة فى العواطف والتصورات فما وجدت الى ذلك

سبيلا لانها تريد وحدة قائمة على التفاضل من ناحية، وعلى أمم مختلفة فى الدين والمنازع من ناحية أخرى. أما الاسلام فيستطيع أن يوجد الوحدة على قاعدة المساواة بين أمم متحدة فى الدين والمشرب ومجرى الحياة العامة

توحدت ولايات أمريكا الشمالية فكان للجميع عظمة وشوكة، وتوحدت الولايات الالمانية، فكان لالمانيا حياة وصولة. وقد طمحت روسيا أخيرا لأن توجد بين أحزاء امبراطوريتها وحدة صناعية. آيات ودلائل تنبيء بان اتحاد الممالك يمكن أن يكون، ولكنه لن يدوم الا اذا كان مبنيا على اتحاد القلوب والمدارك. فاذا تمكن المسلمون من ايجاد وحدة فسوف تكون دائمة لقيامها على قلوب متحدة وأراء متماثلة

كان للعلماء كل الاثر فى نتائج الوحدة الاسلامية فى صدر الاسلام. وكان عليهم أكبر الاثم فى تفرق الممالك الاسلامية. وعليهم اليوم يتوقف أمر الوحدة الاسلامية ويقيننا انهم سيعملون لذلك فى دروسهم ومجالسهم فى المساجد

وعلى المنابر. فى المصنفات وفى الجرائد. وأهم شىء يستطيعون به احياء تلك الوحدة هو الاهتداء بكتاب الله

احياء الاهتداء بكتاب الله

« ان هذا القرآن يهدى للتي هى أقوم — هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين — لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين — كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »

سئلت عائشة رضى الله عنها عن معنى قوله تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) فقالت (كان خلقه القرآن) وفى جوابها اشارة الى قوله تعالى (أتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة — وأتل ما أوحى اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته — يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ان الله كان عليما حكيما — واتبع ما يوحى اليك من

ربك ان الله كان بما تعملون خبيرا) الى غير ذلك من الايات التى أمر فيها - لى الله عليه وسلم باتباع ما يوحى اليه، وجعله اماما يقتدى به، وقد فعل صلى الله عليه وسلم ما أمر به وقام بما طلب منه خير قيام، فتلا على الناس القرآن وربأهم تربية علمهم فيها الحكمة وزكاهم على حسب ما فصل فى الكتاب وبين فى القرآن. وجاء بعده أبو بكر، عمر وعثمان وعلى يخلفوه فى الاهتداء بالكتاب فى جميع شؤون الحياة، وما وجدت حكومة عملت بالمساواة ونفذت نصوص الدين الا حكومة الخلفاء الراشدين. فلقد طبقت جميع ما جاء به الكتاب على شؤون الحياة تطبيقا يرضى الله ورسوله والمؤمنين والناس أجمعين

ان الاهتداء بالقرآن فى زمن الخلفاء الراشدين كان قاعدة الحياة ولقد فتحوا الدنيا واتسعت أمامهم مطالب الحياة وانفسحت رقعة المملكة. فما احتاجوا وهم على تلك الصفة الى قانون سياسى موضوع ولا قانون مدنى مصنوع ولا قواعد للسلوك والآداب مأخوذة من فلسفة الشر

وحكمة أهل النظر، فما ابتدعوا بدعة فى شؤون السياسة ولا فى أمور القضاء ولا فى أى فرع من فروع الحياة، لانهم آمنوا بالله وبرسوله وآمنوا بالقرآن على أنه قانون للحياة وهداية فى شؤون الدين والدنيا، ورأوا من نصوصه وقواعده ما فيه الغناء والكفاية، أدركوا ألا حاجة تدعوهم الى الابتداع فى شؤون الدين أو مسائل الدنيا، وادركوا كذلك أن فى هذا الابتداع قضاء على روح التشريع الالهى وخروجا على تعاليم القرآن نفسه ورغبة فى وضع الهداية البشرية موضع الوحى الالهى ورمزا الى أن فى القرآن نقصا يجب تتميمه. وان فى السنة حاجة يجب تكميلها. أدركوا ذلك جميعه فالزموا الاتباع وجانبوا الابتداع واكتفوا بهداية القرآن وارشاد السنة، فتم لهم ما وعد الله به المؤمنين من الاستخلاف فى الارض ومن تمكين الدين ومن الاستمتاع بلذة الحياة وهى الامن الشامل للارواح والاديان والاعراض كما قال الله فى كتابه (وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من

قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا »

علم الصحابة رضوان الله عليهم ان قواعد التشريع بيد الكتاب وحده وان السنة بيان لهذا الكتاب وأن اتباع الكتاب واجب واتباع السنة واجب وأن الابتداع منهى عنه وأن الابتداع المنهى عنه هو ما كان متعلقا بأمور الدين لانها مأخوذة من لسان الوحى فحسب أما الابتداع فى شئون الدنيا والتفنن فى طلب الملك والاستكثار فيما يؤول الى اعزاز الملة ورفع كلمة الله فهو مما يرضاه الله ويرضاه رسوله والى ذلك الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » وقوله « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى »

حقا أن فى هذين الحديثين حثا على وضع السنن والطرائق الحسنة وعلى اتباع من وضع سنة من تلك السنن

ومما لا يكاد يعقل أن يجتمع فى نصوص الشريعة المطهرة نهى عن الابتداع ، وأمر به فى شىء واحد

اذا ، فلا بد أن يكون النهى متعلقاً بجهة والحث مختصاً بجهة أخرى . وقد علم من استقراء النصوص الشرعية أن النهى عن الابتداع مقيد بامور الدين ، والحث على استنان السنن ووضع الطرائق مقيد بشؤون الدنيا. فللمسلمين أن يبتكروا وضع طرق حسنة لتنظيم شكل الحكومة ولتدوين الدواوين . ولهم أن يسنوا سننا لاستثمار المناجم وتحصيل الثروة من وجوهها المشروعة . ولهم أن يبتكروا ما شاءوا من تنظيم الجيوش وتحضير الذخائر واتقان صنع الاسلحة واحكام قواعد الفن الحربى وتسهيل طرق المواصلات واحكام شؤونهم الخارجية . لهم أن يضعوا فى ذلك سننا وطرائق ، ومن سن منهم فى ذلك سنة حسنة قويمة عظيمة الاثر ظاهرة النفع فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، كما أن من سن منهم سنة سيئة فى تحصيل الجباية ووضع المكوس وشكل الحكومة واهمال الآلات الحربية

وتعطيل انتشار العلم وتمزيق الرابطة وضياع الثقة بين الشعوب الاسلامية وتفريق شمل الامة وتأخير صنعة من الصنائع واهمال شأن من شؤون الحياة ،فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة .

ولقد كان للصحابة عناية بابتكار الاساليب واستنان السنن فى شؤون القتال وفى اعلاء كلمة الله ،فغيروا قواعد التعبئة الحربية ووضعوا لها سنناً ، وأنشأوا للمواصلات طرائق ووضعوا لجباية الاموال أنظمة ولتنشيط الصنائع ونشر المعارف قوانين،فكانوا فى هذا العمل متمثلين لما حثهم عليه صاحب الشريعة من وضع السنن الحسنة . ومع ذلك قد كانوا أحرص الناس على اجتناب ما نهى عنه صلى الله عليه وسلم من الابتداع فى الامور الدينية. فكانت صلاتهم كصلاته وزكاتهم كزكاته وحجهم كحجه . ما ابتدعوا اشكلا فى الصلاة ولا وردا يقوم مقام تلاوة القرآن ، ولا حزبا يكررونه صباح مساء ، ولا طريقا فى الاسترشاد يقوم مقام الوحى بل سلموا شؤونهم الدينية لما ورد فى الكتاب والسنة،فصانوا

الشريعة من التبديل والتحريف، واستقام لهم الاهتداء بكتاب الله ،لان أعظم الاشياء خطراً على الاهتداء هو الابتداع واشراك الهداية البشرية مع الهداية الالهية

ولو أن الصحابة أشركوا مع الهداية الالهية شيئاقليلا من الهداية البشرية ، لما أوجدوا تلك الحكومة العادلة، والشعب المجيد ، والآثار الخالدة . رأوا أن فى القرآن آيات تتعلق بالله وصفاته ، وبالرسل وصفاتهم ، وبالدار الآخرة وما فيها ، فآمنوا بها كما وردت ، ثم رأوا مافى القرآن من الادلة والبراهين الدالة على ثبوت تلك المعتقدات ، فجعلوها قانونا للنظر، ومعياراً للاعتبار. وكانت فى وضوحها وسهولة دلالتها صالحة لان تدركها عقول الجماهير كما تدركها عقول الخاصة ، لانها هداية للكل ، وارشاد لبنى آدم على السواء اكتفوا بما فى القرآن من النص على المعتقدات ، ومن الارشاد الى وجوه الدلالة ، ومن النهى عن الخوض فيما وراء الطبيعة ، لانه لا يمكن ادراكه لفقدان الادلة الموصلة اليه، فوقفوا عند ماحدده لهم الكتاب،وعلموا أن التطوح

وراء تلك الحدود خروج على الدين وعلى العقل معاً ، فمضوا على تلك المعتقدات بالنواجذ ، وصرفوا عقولهم الى شؤون الحياة ومطالب المعيشة ، فخاضوا غمارها بعقول صافية غير مرتبكة ولا مشوشة ، فجاءوا بالعجائب والمدهشات ، ولو أن القرون المتأخرة سلكت مسلكهم فى المعتقدات لما وجد هذا التفرق . ولما كانت تلك المذاهب ، ولما تحولت الامة الاسلامية عن الاهتداء بالقرآن فى أهم شىء يتوقف عليه النجاح فى الاخرة . وترتبط به الاستقامة فى شؤون الدنيا

فهل للمسلمين اليوم أن يتعظوا بتلك التجارب ، فيعودوا الى ما كان عليه سلفهم من الاهتداء بالقرآن فى العقائد التى تتعلق بالله وبالرسل وبالملائكة وبالكتب وبالدار الاخرة ، وأن يدركوا أن مسائل الغيب لا تؤخذ الا من طريق الوحى وأن يعلموا أن ما أرشد اليه القرآن من الدلائل هو أخر ما يمكن العقل أن يصل اليه ؟ . بذلك يشهد تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها الى اليوم . هل للمسلمين أن يتركوا

الاختلافات ، أن يرجعوا الى ما كان عليه سلفهم، لتستقيم لهم شؤون الحياة مرة ثانية ؟ وما الذى استفدناه من الخلاف فى أن الوجود عين الموجود أو غيره، أو أنه عينه فى الواجب غيره فى الممكن . أو أنه أمر حقيقى أو انتزاعى؟ وما الذى استفدناه من أن الاسم عين المسمى أو غيره ، ومن أن الصفات عين الذات أو غيرها ، ومن أنها ممكنة أو واجبة؟ وما الذى استفدناه من أن علم الاله هل هو تفصيلى أو اجمالى ؟ ومن المباحث المتعلقة بالقدرة والارادة والكلام والقدم الذاتى والزمانى ؟ ما الذى استفدناه من ذلك ومن غيره ، وأى أثر لتلك المباحث يتعلق برضاء الله أو باستقامة أمور الحياة ؟ أما كفت تلك القرون لحل تلك المشاكل ، وانهاء النزاع فيها ؟ وهل علماؤنا لا يزالون يرون أن لا بد من المرور بها لكل طالب علم ، وراغب فى تثبيت عقيدة ؟ ان كانت دينية فعلينا أن نسلم بها كما وردت ، وان كانت عقلية : فان كانت موضع اجماع فعلينا أن نرفع الخلاف عنها ، وان كانت موضع خلاف فأى حاجة اليها فى العقائد التى لا ينفع

فيها الا البرهان اليقيني !؟

حالت تلك المباحث بين المسلمين وبين الاهتداء بالقرآن في علم التوحيد ، وهو أهم العلوم لديهم . ولقد ضموا اليها مسألة القضاء والقدر ؛ والبسوا تلك المسألة لباساً دينياً من ناحية . ولباسا عقليا من ناحية أخرى ، ليزيدوها ارتباكا على ارتباك ؛ وتعقيداً على تعقيد !. يعرضونها أمام العقل ، ويضعونها في معرض البحث ، ثم يسدون على العقل طريقه! هل هي عقيدة ؟ ان كانت عقيدة فلماذا لم يهتدوا فيها بهدى القرآن ، ولم يسلكوا في الايمان بها وتطبيقها على شؤون الحياة ، وتطبيق شؤون الحياة عليها ، سبيل النبي ، وسبيل الخلفاء الراشدين بعده ؛ وان كانت علمية صرفه ، وبحثا عقليا محضا ، فلأي شيء يدخلونها في مسائل العقيدة ؟ ان كانت عقيدة فليرفعوا الخلاف عنها . وان كانت مسألة جدلية فليرفعوها من الدين . أما وضعها هذا الموضع ، واحاطتها بتلك القيود ، فهو دسيسة وفتنة أصاب المسلمين منها مالا يعلم خطره الا الله وحده

هل للمسلمين اليوم أن يعتبروا المسألة دينية ، فيجمعوا ما ورد من القرآن بشأنها وما ورد فى السنة ، ثم يأخذوا منه تحديد معنى القضاء والقدر ، بدون نظر الى ماقاله الاشعرى أو الماتريدى أو المعتزلى ؟ فلقد آمن المسلمون بتلك العقيدة وانتفعوا بها فى الحياة قبل أن يوجد علم الكلام ، وقبل أن توجد المذاهب الكلامية ، أما كان ينبغى أن تحدد العقائد تحديداً يزيل عنها اللبس والابهام ، ويرفع عنها الخلاف والتشويش ؟ واذا كان للاشعرى رأيان فى المسألة ، فكيف يجعل قول منهما قانونا لعقيدة تمس أهم شؤون الحياة؟ أما للقرآن نص فيها ؟ أما للسنة بيان ؟ أيترك صاحب الشريعة تحديد عقيدة من العقائد ، ويهملها الى هذا الحد ؟ واذا كان له تحديد ففيم النزاع ؟ واذا لم يكن فعلام الاعتقاد ؟! واذا كانت فى بعض العصور ظروف سياسية واجتماعية أدت الى نزاع فى مسألة ، فلماذا يعتبر نزاعهم عقيدة حتى بعد زوال الظروف ، وفناء المتنازعين ؟ ألا أنه لا دواء لتلك المصيبة لا بنبذ هذا الخلاف تفصيلا وجملة ، ثم الرجوع الى ماورد

فى القرآن ، فهو المعصوم وحده ، وهو مرجع العقيدة دون سواه

القرآن والاخلاق

فى القرآن آيات تتعلق بالاخلاق وبقواعد السلوك وللقرآن عناية بهذا النوع تكاد تستغرق أكثر ماورد فيه من الايات الكريمة . وقد أدرك ذلك المسلمون فى صدر الاسلام فاستمسكوا بها واعتبروها قانونا فى علاقاتهم الشخصية والاجتماعية ، وفيما بينهم وبين الله . فكانت بيوتهم مستمسكة بما ورد فى القرآن من الاوامر المتعلقة بالولد نحو والده ، وبالوالد مع ولده ، وبالرجل مع زوجه ، وبالمؤمن مع أقاربه . وكانت أوساطهم مستمسكة بما ورد فيه من الاداب المتعلقة بالاخوة الاسلامية ، وباداب الجوار ، وباحترام ذوى الفضل وأهل العلم . وكان كل فرد منهم عارفا بما عليه من الواجبات لله ، يؤديها فى كل وقت وفى كل زمان : من صلاة وزكاة وحج ان استطاع ، وجهاد بالمال ، النفس ، وتطبيق أعماله على ما يعلمه من شؤون الدين ، متذكرا خشية الله ، ملاحظا فى كل

عمل نصيبه فى الدار الاخرة، ومركزه يوم القيامة . وذلك روح التربية الدينيـة . وما استفادوا هذا الروح ، ولاشملتهم تلك التربية الا لانهم رغبوا فى الاهتداء بالقرآن ، وكانت آيات القرآن المتعلقة بتلك الامور من الوضوح والجلاء بحيث لا تخفى على أحد ، وكان القرآن بين ايديهم جميعـاً لانه قانون الحياة . وواجب التربية يقضى على كل فرد أن يعرف من قانون الحياة ما يستطيع به تأدية واجبه

فقد ورد فى الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وجملة الشريعة تقضى بأن كل مكلف عليه أن يعلم ما كلف به ، حتى يؤديه على وجهه . من أجل ذلك فرض الاسلام على كل مسلم ومسلمة ان يتعلم القدر الذى يخرج به من عهدة التكليف ، وبذلك كان المسلمون اسبق الامم الى تقرير التعليم الاجبارى . وكان اجباريا لان الدين أمر به ، ولان الحكومة الاسلامية مطالبة بتنفيذ هذا الامر ، ولان كل مسلم مطالب بأن يعد نفسه واولاده لتنفيذ هذا الامر ، وكان القرآن هو وحـده امام الجميع وقدوة الكل .

لان ما فيه من الاوامر ، وخاصة ما تعلق منها بالاخلاق، لا يحتاج الى أى معلم . وقد تكفلت السنة الشريفة ببيان آيات الاحكام، ونقل هذا النوع بطريق التواتر، فكان علمه من نوع علم الكتاب فى الوضوح والجلاء. وما أمر الناس بسؤال أهل الذكر الا فى المسائل الخفية التى تحتاج الى قوة استنباط تفوق قوة العامة لذلك كان الاهتداء بالقرآن قاعدة التربية الاسلامية فى القرون الاولى ، ومضى القرن الاول والثانى وليس للقرآن تفسير ، لانهم كانوا يعلمون عدم احتياجهم الى شرح أو تفسير ، ولما كانوا يخشونه من فتح باب الاختلاف فى الشرح والتأويل ، فاقتصروا على نصوصه واستغنوا بهدايته وبهداية سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما يحتاج الى البيان، عن أى هداية بشرية

قال ابن حزم فى كتاب (الفصل) صفحة ٧٨ جزء ثانى مانصه :

« مات رسول الله صلى الله عليه وسلم والاسلام قد انتشر ، وظهر فى جميع جزيرة العرب من منقطع المحر

المعروف ببحر القلزم ماراً الى سواحل اليمن كلها الى بحر فارس الى منقطعه، ماراً الى الفرات، ثم على ضفة الفرات الى منقطع الشام، الى بحر القلزم . وفى هذه الجزيرة من المدن والقرى مالا يعرف عدده الا الله عزوجل، كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلى طى و بلاد مضر و ربيعة وقضاعة والطائف ومكه ، كلهم قد أسلم و بنوا المساجد ليس منها مدينة ولا قرية ولا حلة لاعراب الا قد قرىء فيها القرآن فى الصلوات وتعلمه الصبيان والرجال والنساء . ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون كذلك ليس بينهم اختلاف فى شىء أصلا ، بل كلهم أمة واحدة ودين واحد ومقالة واحدة

ثم ولى ابو بكر سنتين وستة أشهر فغزى فارس والروم وفتح اليمامة وزادت قراءة الناس القرآن

ثم مات أبو بكر وولى عمر وفتحت بلاد الفرس طولا وعرضا وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها ، ولم يبق بلد الا بنيت فيه المساجد ونسخت فيه المصاحف وقرأ الائمة القرآن وتعلمته الصبيان فى المكاتب شرقا وغربا . وبقى

كذلك عشرة أعوام وأشهراً والمؤمنون كلهم لا اختلاف بينهم فى شىء ، بل ملة واحدة ، ومقالة واحدة . ثم ولى عثمان فزادت الفتوح واتسع الامر، فلو رام أحد احصاء مصاحف أهل الاسلام ماقدر »

من هنا يتضح لنا أن كل مسلم كان مطالبا بالنظر فى القرآن والاهتداء بما فيه . وللقرآن فى هداية النفوس تأثير لا يمكن لغيره أن يغنى غناءه أو ينفع نفعه لانه كتاب الله ، ولانه فى نهاية الوضوح ، ولانه برىء من لوازم الكتب البشرية من الاختلاف والتناقض والنقص والسهو وعدم الاحاطة بالامور . وشتان ما بين الوحى الالهى والتفكير البشرى

أدرك المسلمون فى صدر الاسلام هذا المعنى فسلموا نفوسهم للقرآن يتصرف فيها بالتزكية ، وتعليم الحكمة يحيون ما أحياه ويميتون ما أماته ، كل منهم على بصيرة من أمره وعلى علم بما يفعل وبما يترك . هذا هو السر فى حياة الامة العربية ، وهى الامة الامية والشعب المتفرق الضال

البعيد عن علم سنن الحياة

* * *

المطبوعات فى هذا العصر الحاضر تأثير عجيب فى نهضة المدنية الحديثة . وكان للقرآن فى صدر الاسلام كل الاثر فى نهضة الامة الاسلامية ، يتدارسه كل مسلم ، ويهتدى به كل مؤمن ، ويسير فى الحياة على مقتضاه كل موحد . وهو فى ذاته حق وهداية وصراط مستقيم . اهتدوا به فهداهم للتي هى أقوم . ولو أن المسلمين فى العصور التى تلت الصدر الاول جعلوه وحده قانونهم فى الحياة لما نكبوا تلك النكبة ولما تمزقت وحدتهم هذا التمزق الشائن المخجل

ما الذى استفاده المسلمون من التفاسير التى وضعها المتأخرون على كتاب الله ؟ هل ما فيه من آيات الاخلاق وما به من قواعد الحياة يحتاج الى شرح وايضاح ؟ أعربوه ! ونقلوا فى الاعراب جميع ماقاله البصريون والكوفيون فماذا كانت النتيجة ؟ هل زادوا فى ايضاحه ، أم صرفوا القارىء عن النظر فيه ؟ طبقوا عليه علوم البلاغة من معانى وبيان

وبديع ، فما تركوا مجازاً عقلياً أو لغويا إلا تكلموا فيه ، ولا استعارة على اختلاف أنواعها إلا بحثوها وذكروا مذاهب البيانيين فيها. تكلموا فى الفصل والوصل وفى الكناية وفى الجناس وطبقوا سائر مادون فى هذه العلوم على آياته الكريمة فماذا كانت النتيجة ؟

هل أنارو معالمه فزادت هداية الناس به ، أم صرفوا القارىء وشغلوه بمباحث تم الكلام عليها فى مواضعها ، وانتهى البحث حولها فى أماكنها ؟ وما كان الغرض من تدوينها الا ايجاد ملكة صناعية لمن يريد فهم القرآن تقوم مقام ملكة العرب الطبيعية حتى اذا ما أراد النظر فى القرآن كان له من تلك الملكة ما يستطيع به فهم بلاغة القرآن على وجهها

فنون وضعت لفهم البلاغة لاصلة لها بالاهتداء ، ولا علاقة لها بحياة الامة الا من نواح بعيدة . وجميع ماورد فى القرآن من الايات الاجتماعية والسياسية لا يتوقف فهمه على تلك العلوم بالمرة

طبقوا عليه آراء المتكلمين ومباحثهم، فهل زادوا أدلته وضوحاً وبراهينه جلاء، أم شغلوا الناظر فيه عن الدلائل السهلة الواضحة، والبراهين الفطرية الموضوعة لعموم الامة واوجدوا أمامه مباحث تضل به فى انظار وهمية، وفروض واشكالات بلغ من اختلاف أصحابها فيها ان تضارب قول الشخص الواحد منهم، واختلف رأيه فى المسألة الواحدة؛ تعرضوا فى تلك المباحث لتحديد طبائع الوجود، ومهايا الامور الغيبية، وتناولوا البحث فى ذات الله وفى صفاته، والبحث فى حقيقة الروح والملك وسائر ما استأثر الله بعلمه من أمور الغيب التي نهى البشر عن الخوض فيها. ولولا الرغبة فى احلال الهداية البشرية محل هداية الوحى لما نكب المسلمون بتلك النكبة، ولما ذكروا تلك المباحث فى تفسير كتاب الله !!

القرآن والقصص

فى القرآن آيات تتعلق بقصص الانبياء وفى تلك القصص تتمثل أهم التجارب التى شاهدتها العصور التى

سبقت نزول القرآن . فيها أخطر الانقلابات التى مرت على الجنس البشرى ، فيها الانقلابات الدينية التى يتغير بها وجه الحياة فى الجزء الذى تتناوله الدعوة ويشمله الدين المدعو اليه ، فيها مقاومة الحق للباطل ، واستبسال الباطل فى الدفاع ، وفوز الحق عليه فى النهاية فوزاً تتجلى فيه ما للصفات الفاضلة من التأثير فى مجرى الحوادث . فى تلك القصص بيان ما للدعوة الى الحق من التأثير ، وما لثبات الداعى من التأثير فى نجاح دعوته ، وما للاعتماد على الله بعد بذل كل ما فى الوسع من الاثر فى نجاح الداعين الى الحق ، فى تلك القصص تشابه قلوب الجبابرة وتماثل دعاويهم ، وتقارب عواقب أمورهم . وفيها تظهر الادلة البينة على ما لله من حكمة ، وما له من رحمة ، وما عنده على الحق من غيرة . فيها البراهين التاريخية الحية على وجوده وعلى قدرته وعلى وحدانيته وعلى صدق رسله وعلى نصر الحق ، وان كثر أعداؤه ، وفوز فكرة الخير ، وان قل ما لها من أعوان وأنصار . فيها كل ذلك وأكثر منه بأسلوب واضح وألفاظ

لاتحتاج الى شرح أو تفسير ولقد ذكر القرآن اكثر تلك القصص بأساليب مختلفة من الطول والقصر ليكون من مجموع ماذكره مايغنى عن الحاجة الى الشرح والبيان ، كما أن فى ذلك تربية لملكة الاتعاظ والاعتبار ، والتربية تحتاج الى تنوع الذكر ، والتنوع غير التكرار . وأهم شىء يريده القرآن من ذكر تلك القصص هو تربية الزعماء والجماعات الداعية الى الخير ، وتثبيت ملكة الاعتبار والاتعاظ فى نفوس الامة ليكون لها من النظر فى الماضى عبرة ، ومن التأمل فى وقائع الغابرين عظة

ماذا عمل متأخرو المفسرين فى تلك الآيات ؟ هل تركوها على وضعها لينتفع بها الناس . وهل أدركوا مايراد منها فدعا الى الاعتبار بها وتركوا الكتابة والتعليق عليها ؟ لم يفعلوا شيئا من ذلك بل عمدوا الى الاسرائيليات المكذوبة فجعلوها تفسيراً لتلك الآيات الكريمة . وياليتهم نقلوا من الروايات الاسرائيلية ماهو معقول فى ذاته ، أو ماله صلة بغرض القرآن ، بل ذكروا ، كما يقول ابن خلدون ، مارواه

عامة أهل الكتاب القاطنين ببلاد الحجاز ، فكان مانقلوه خلاصة المفتريات التي يرويها أهل الكتاب!! ومن الغريب المدهش أنك تقرأ في الكتب العلمية أنهم أجمعوا على رفض الاسرائيليات ، وقد بالغوا في ذلك حتى جعلوا لفظة (اسرائيليات) علامة على كذب الحديث وافتراء الرواية . ولكن متأخرى المفسرين ، عفا الله عنهم ، نقلوا خرافات الجهلة من بني اسرائيل في تفسير كتاب الله وطبقوا عليها معاني التنزيل ، فتركوا للمسلمين أقبح ميراث ، وألعن تركة علمية . ولقد انتفع المبشرون بتلك السقطة أيما انتفاع ، وكان لهم منها معين لا ينضب ، ومورد لا تعرف له نهاية

ان ما نقله متأخرو المفسرين في تفسير تلك الآيات قد حال بين الناس وبين الانتفاع بها ، بل أوجد للعلماء مشكلة جديدة بين مشاكلهم العلمية ، لما في تلك المنقولات من إثبات أقبح المعاصي لخير البشر ، وصفوة الله من خلقه. ولهم في حل تلك المشاكل المعجب والمطرب ، والمضحك والمبكي ، مع أن الروايات من أولها الى آخرها افك

مفترى ،واختلاق يحرم نقله وتمنع روايته . ولكن ما الحيلة وقد اختل نظام التأليف كما اختل شأن الهداية ! وليتنا اذ فقدنا الاهتداء بكتاب الله لم نفقد الاهتداء بالعقل !! ولكننا فقدنا الاثنين معاً ! وليتنا اذ فقدناهما خلصت عقولنا لشؤون الحياة ، لكننا فقدناهما فقداً انتهى بنا الى خلق مشاكل لا هي مفهومة ولا هي نافعة . تذكر في كل كتاب، وتقرأ في كل مصنف ، كما تقرأ فاتحة الكتاب في الصلاة : فلا نحن اهتدينا الى حلها ، ولا هي في ذاتها قابلة للحل ، لان حلها في عمومها ، والقوم يتشبثون بها على حين انهم فرطوا في كل شيء : فرطوا في شؤون الدين ، وفرطوا في شؤون الدنيا ، ثم استمسكوا بتلك المباحث وحدها فليتهم تركوها أو ليتها تتركهم ! ليتها ذهبت مع ما ذهب من عز المسلمين ، وليتها زالت يوم زال مجدهم !!

حقاً ان في بقائها بايدي المسلمين ، مع فقدانهم كل شيء في الحياة ، لاكبر دليل على ما تشير اليه الآية الكريمة: «ومن عرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة

أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وكنت بصيراً ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » . ان القرآن لا يزال بايدى المسلمين ، وقد جربوا نتيجة الاهتداء به فى الصدر الاول وجربوا عاقبة الانحراف عنه فى القرون المتأخرة ، فما الذى عولوا على سلوكه فى الوقت الحاضر ؟ هل يريدون احياءه كما أحياه السلف ، أو إماتته كما فعل الخلف ؟

مضى القرن الاول والثانى وليس بأيدى المسلمين تفسير واحد ، مع ان جميع البلاد الاسلامية قد تم فتحها فى ذلك العصر ، وكمل اختلاط الشعوب الاسلامية بعضها ببعض ، وكان للجميع قانون واحد فى التربية : هو القرآن ، جعلوه مدار حياتهم ، فداروا حوله وحده . فهل يمكن ان يقال بعد ذلك أن الاهتداء بالقرآن ، يتوقف على تفسير أو شرح ؟ وماذا عملت تلك المجلدات التى تفوق الحصر فى هداية المسلمين ؟! لقد اختل أمر التربية فى البيوت وفى المجتمعات ، واختل أمر التربية الخلقية . واختل نظام الحكومة الاسلامية وضعفت شوكتها وزالت هيبتها ، والمسلمون هم المسلمون

والقرآن هو القرآن ، فما الذى أوجد تلك الحالة السيئة ؟؟

أيمكن أن يقال ان لما وضعه متأخرو المفسرين لكتاب الله فى التفسير من المباحث والروايات دخلا فى ايجاد تلك الحاله، وفى دوامها ، لانهم اوجدوا للناظر فى القرآن شواغل تحول بينه وبين الاهتداء فيه ، على حين انه يظن انه سهتد بالنظر فى تلك المباحث والروايات !

أيمكن أن يقال : ان تلك التفاسير نقلت معنى الاهتداء بالقرآن الى الاهتداء بما فيها هى . فأفهموا المسلمين انهم يهتدون بالقرآن وفى الحقيقة هم لا يهتدون الا بتلك التفاسير ؟. لا ريب أن تلك التفاسير عليها تقع التبعة وتلقى المسؤلية فيما أصاب المسلمين فى العصور الاخيرة من الفجائع والمصائب ، كما ان تركها يتوقف عليه نجاح النهضة الحاضرة

فهم القرآن

على المسلمين اليوم أن يجيدوا تعلم علوم اللغة العربية فاذا تم لهم ذلك جعلوا القرآن قانونا لسيرهم فى الحياة . ولا يستثنى من ذلك إلا آيات الاحكام وحدها ، فان ارتباطها

بالسنة ، وارتباط السنة بها ، يجعل ادراكها من خصائص مجتهدى الامة وحدهم ، أما مايتعلق بالعقائد والاخلاق وسنن الوجود فعلى كل مسلم أن يهتدى فيه بهدى القرآن وحده ، وأى حاجة بالمسلمين الى ما كتب فى التفاسير اذا ماأرادوا أن يعملوا بقوله تعالى «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » : ان فهمهم لتلك الآية واهتداءهم بها لايتوقف على اجراء الاستعارة فى لفظ الحبل وما يرتبط بذلك الاجراء من المباحث ، ونقل المذاهب فى الاستعارة ، واجراء عدة استعارات فى الآية

يمكن المسلمين أن يفهموا قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » بدون التعرض الى مافى الآية من المباحث البيانية

حقاً يمكن فهم تلك الآيات والانتفاع بها اذا خلى بين النفس وبين ادراك المعنى وهذا لايكون الا اذا وضع الانسان المصحف أمامه وسلم له نفسه . أما اذا أشركنا

مع القرآن غيره توزعت قوى الفهم ، وانتقل الانسان من مبحث الى مبحث ، ودخل فى طور الجدل والمقصود انما هو العمل وقلما أدى الجدل الى العمل . من أجل ذلك يجب أن يترك المسلم نفسه للقرآن وحده اذا أراد أن يجعله قانونا للحياة

الجهاد والقرآن

أى حاجة الى التفسير اذا ما أراد المسلمون أن يعملوا بقوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم » ؟

وهل مثل هذا البيان يحتاج الى تفسير ؟ وأى أمة لها فى الحياة مثل تلك القاعدة ، فى بيانها ووضوحها ، ثم تترك العمل بها فى الوجود الخارجى ، وتهتم باعرابها واجراء الاستعارات فيها ، ونقل الآراء الخاطئة فى تأويلها ؟ هل اشتغل عمر وأبو بكر وعثمان وعلى بتطبيقها على شؤون الحياة ، أم بتطبيقها على آراء سيبويه وابن جنى والاخفش فى النحو والصرف ، واستتباع ذلك لعدة مباحث لا صلة

لها بالحياة ، ولا علاقة لها بروح القاعدة ؟!

ان عظمة انكلترا ما كانت الا من اليوم الذى قررت فيه أن يكون لها أسطول يفوق أسطول دولتين من دول أوربا العظمى . ولقد قال بتمان هلفج فى مذكراته : « لقد كنا نتباحث فى انشاء أسطول بحرى ، وكان ذلك موضع أخذ ورد لدينا ، فى الوقت الذى كانت تعتقد فيه انجلترا أن تفوقها فى البحر مسألة حياة أو موت » !

ومن يتدبر ماورد فى القرآن من الآيات الآمرة باعداد القوة الحربية يدرك ادراكا لاريب فيه أن التفوق فى القوة فى نظر الاسلام مسألة حياة أو موت : « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة »

واذا كان القرآن يقرر أن مسألة القوة مسألة حياة أو موت ، فهو يقرر كذلك أن على المسلمين أن يعدوا عدوهم ما استطاعوا من القوة ، ويبين أنهم لا يعدون قائمين بهذا الامر الا اذا أعدوا ما يرهب العدو الظاهر الذى يعلمونه

والعدو الخفى الذى لا يعلمونه . أى أنهم لا يخرجون من عهدة الامر الا اذا أعدوا قوة لا يمكن التغلب عليها بحال. من أجل ذلك أمرهم بأن يكونوا جميعاً على أهبة واستعداد: « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله» ولم يستثن الا من ذكره فى قوله : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ماينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله » وبالقيد الاخير أشرك هذا النوع المستثني فى الجهاد السياسى ، لانه لا يرتفع عنه الحرج والاثم الا اذا نصح لله ورسوله . وذلك بأن يؤدى خدمة سياسية، أو يقوم بوظيفة النشر (أو البر وباجندا بلغة أوروبا السياسية»

ماذا على المسلمين لو جعلوا هذه الايات قاعدة حياتهم وأغفلوا ما كتبه متأخرو المفسرين، من أن الامر للوجوب أو الندب ، ومن أن الاستطاعة قبل الفعل أو معه ، ثم تحديد ماهية الاستطاعة ؛ ومن الكلام فى أن الجهاد فرض عين أو فرض كفاية ، وما الى ذلك من المباحث التى لم تتعود

الامم ذكرها، والتشويش بها على قانون حياتها العام ؟ ولقد قام المسلمون بذلك الغرض قبل أن تظهر تلك المباحث، ثم أهملوه بعد ظهورها، لما لتلك المباحث من التأثير في الاعتقاد بأن مسألة القوة، مسألة حياة أو موت . والعقيدة تحتاج الى تربية وتكوين وتنمية. لا الى تشويش وتشكيك وقلما اجتمع الاعتقاد والجدل في نفس واحدة

أي حاجة الى التفسير في قوله تعالى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال .. الاية ؟ فقد عمل بها المسلمون يوم فتحوا الدنيا ، وملكوا ناصية الامم ، قبل أن توجد المباحث التي يوردها متأخرو المفسرين ، في تفسير تلك الاية ، كبحثهم في التحريض من جهة اشتقاقه ، ومن جهة معانيه اللغوية ، وكبحثهم في الامر هل هو للوجوب أم للندب ، وهل هو خاص بالنبي أو هو من الاوامر العامة. الخ ما أطالوا به في تفسير تلك الاية . ولو أنهم عملوا بها وتركوا البحث فيها على مناحيهم المعروفة ، لما فقد بين المسلمين ذلك الروح الحربي الذي أوجده التحريض على القتال

بين سلفهم فى الصدر الاول . وتناه دوامه وازياد النشاط فيه

أمر القرآن أمير المؤمنين بان يحرضهم على القتال ، وترك بيان كيفية ذلك التحريض ، ليكون للمحرض كامل الحرية فى ابتكار مايشاء من الاساليب ، واختراع ماترشد اليه التجارب من الكيفيات . شأنه فى الاوامر التى يكون الزمان وحده هو الكفيل ببيان كيفيتها ، وتوضيح أنواعها كالامر باعداد القوة ، والامر بالتعبئة العامة فى قوله : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله » وكالامر بالاحسان بذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . والى ذلك أشار الرسول بقوله : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » الحديث . فقد بين علماء السنة أن استنان السنن الحسنة الذى حرض عليه الرسول لايكون الا فى الاوامر التى ترك الشارع بيان أنواعها وضروبها وكيفيتها لرأى ذوى الرأى ، واختبار أولى التجارب . ومن هذا الباب قوله تعالى :

PG A728

« يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال » فان وضع نظام خاص لتحريض المؤمنين على القتال لا يمكن أن تجيء به الشريعة التي تصلح لكل زمان ومكان ، بل لابد أن تترك تحديد النظام لمقتضيات الزمن ، وتطورات الاحوال الاجتماعية . من أجل ذلك جاء بالتحريض على تلك الصورة وترك نظامه لمقتضيات الزمان والمكان . وقد فهم المسلمون ذلك فآمنوا بان فى القرآن أمراً بتحريض المؤمنين على القتال ، وعلموا أنهم مكلفون بامتثال هذا الامر ، واستخلصوا من عمومات الشريعة أن عليهم أن يبذلوا مافى وسعهم لتنظيم أمر التحريض ، حتى يقع امتثال الامر على أتم ما يمكن أن يكون .

فكان الامام يحرض فى خطبه السياسية ، وفى خطبه على المنابر يوم الجمعة ، وكان يأمر نوابه بان يحتذوا على مثاله فى تحريض المؤمنين على القتال ، فكانت المنابر الاسلامية تنبعث منها مواقد الحمية ، وتشعل فيها نار التحريض . وكان للخطباء تفنن فى القيام بهذا الواجب ، وكان للوعاظ عناية

بهذا الامر . وكان للمدارس وحلقات الدرس ، أيا كانت ، اتجاه لتنمية هذا الغرض ، وتتميم هذا المقصد، وكان للوالد مع بنيه ، ولرئيس العشيرة مع عشيرته ، ولكل ذى نفوذ مع جماعته ، تدارس لهذا الامر ، ورغبة فى انعاش الروح الحربى وتنمية فكرة التضحية، والترغيب فى الاستشهاد فى سبيل الله ، وكان أهم وسيلة تتخذ لتحريض المؤمنين على القتال هى قراءة ما ورد فى القرآن من الايات المتعلقة بالحث على الجهاد ، والتحريض على الانفاق فى سبيل الله ، وتحبيب الاستشهاد الى نفوس المؤمنين ، وبيان ما يترتب على اعلاء كلمة الله من الفلاح فى الدنيا والسعادة فى الاخرة . قرأ المؤمنون مافى القرآن من الاوامر والوصايا والوعد والوعيد والترغيب والترهيب المتعلقة بالجهاد ، والدعوة لاعلاء كلمة الله ، فكان لهم من القرآن معين من التحريض لا ينضب، فاستطاعوا الاحتفاظ بالروح الحربى ، وبمبدأ التضحية والاستشهاد فى سبيل الله ، ولولا انهم عرفوا فائدة التحريض على القتال فى تنمية روحهم الحربى، وأدركوا علاقته بحماية الدعوة

الاسلامية ، وبصيانة الملة ، وفهموا وسائله المؤدية اليه، وعملوا بما أمروا به من ابلاغ نظام التحريض الى أقصى درجة ممكنة ، لولا ذلك جميعه لما تم للمسلمين فى تلك المدة القليلة من الفتح والغلبة والانتصار على جميع الملل مالم يعهد له نظير فى أى دور من أدوار التاريخ العامة

للامم الحربية اليوم نظام واسع النطاق لتحريض قومهم على القتال . وساعدهم على ذلك ما أوجدته المدنية الحديثة من المطابع ، ووسائل النقل السريعة ، ووسائط نقل الاخبار على عجل ، واتقان نظام الشكنات الحربية والمدارس العسكرية والرغبة فى تقديم ماتطلبه وزارة الحربية على سائر ما تطلبه الوزارات الاخرى ، ولكنهم مع تلك الخصائص والمزايا لم يصلوا فى تكوين الروح الحربى الى ما وصل اليه المسلمون فى الصدر الاول ، لان الاسلام صبغ التحريض بصبغة دينيه ووكل الى القرآن أمر التحريض . وفيه من الآيات مايقضى على المسلم بان يبيع لله ماله ونفسه . فيصبحا من حقوق الامام يتصرف فيهما على حسب مايقضى به نظام التعبئة ، وتتطلبه

حماية الدعوة المحمدية : (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة . يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟) الى: (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) الى غير ذلك من الآيات التي وردت في هذا الشأن

ولقد اشتملت سورة الانفال على خمس وسبعين آية وجاءت بعدها سورة التوبة وهي تحتوي مائة وتسعا وعشرين آية ، وكلتا السورتين وردتا في شأن الجهاد ، فكان في القرآن في موضع واحد ما يزيد على مائتي آية شريفة ، كلها في الجهاد وفي التحريض عليه ، فضلا عما في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والاحزاب والقتال والفتح والحشر والممتحنة والصف والمنافقون . فان في تلك السور من الآيات المتعلقة

بالجهاد والقتال فى سبيل الله ما يزيد عما فى سورتى الانفال والتوبة

ولقد انتفع المسلمون بتلك الآيات يوم أرادوا أن يقرأوا القرآن ليعملوا بما ورد فيه ، يوم اعتبروا ما ورد فى الجهاد من الآيات قانونا يجب العمل به لا جداول تطبق عليها المذاهب النحوية والصرفية والبيانية والكلاميه، أقصى مايفهم منها فهم ما كتب الكاتبون عليها . ان تم ذلك فقد انتهت مهمة المفسر وقضيت حاجة الراغب فى مطالعة التفسير أما العمل بما فى تلك الآيات ، أو الحث عليه ، أو دعوة المؤمنين الى احيائه ، أو مطالبة الحكومات الاسلامية بتنفيذ ماجاء فى تلك الايات ، فامر قد نسيه تاريخ المسلمين بعد انقضاء الصدر الاول

قوة تأثير القرآن

القرآن كلام الله . وله تأثير خاص فى تربية الملكات وتكوين الاخلاق وتثبيت العقائد . علم المسلمون ذلك فى صدر الاسلام . فوكلوا اليه وحده تربية أخلاقهم وتكوين

مشاعرهم ، وتنظيم عقائدهم ، وأدركوا أن من المستحيل أن يقوم غير القرآن مقامه فى تربية النفوس ، وتكوين النزعات فابوا أن يأخذوا عقائدهم وأخلاقهم ومشاعرهم عن غيره ، لانهم أيقنوا أن ليس فى استطاعة أى انسان أن يؤلف ، كلاما يحمل فى كيانه تأثيرا يماثل تأثير القرآن أو يدانيه أو يقع قريبا منه

وأى مفسر يستطيع أن يأتى بكلام يؤثر فى نفس السامع تأثير قوله تعالى : (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ! أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم — يأيها الذين آمنوا ، هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من

تحتها الانهار ،ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين »

أما كان ينبغى أن تترك هذه الآيات بدون تفسير ولا تعليق ، ثم تسلم اليها نفوس المسلمين لتفعل فيها مافعلته باسلافهم فى الصدر الاول ؟

من الكلام ما اذا سمعته شعرت بأن فيه روحا تملك عليك أمر نفسك ، وهذا النوع من الكلام لايغنى غيره غناءه. وان حاولت تفسيره أو بيانه بعبارة أخرى فقد جنيت عليه شر جناية ، لانك تكون قد فصلت روحه عن بدنه، فأصبح كلاما خاليا من التأثير ، مجردا من الروح الذى كان يملك عليك أمر نفسك ، وأضحى السامع فى الحقيقة لايسمع الا كلام المفسر ، ولا يتأثر الا بما جاء فيه وحده. ذلك شأن خطب على رضى الله عنه فى نهج البلاغة ، فأنك لو حاولت تفسيرها فلا بد أن ينتهى بك الامر الى أن تنقل للناس ماستطعت أن تفهمه أنت من معانيها. أما ما لايمكن نقله

من روحها ، وهو الجزء المؤثر منها ، فسوف يخلو كلامك منه لامحالة

واذا كان هذا محسوساً فى كلام البشر ، وغير منازع فيه بين بنى آدم ، فان الشأن فى كلام الله أجل وأرفع . ولو أن طريق التعليم والتصنيف عندنا كانت تترك وقتاً يسمح بأن يكون للناظر فى القرآن ، بعد أن يفهم ويبحث جميع ما كتب عليه من الشروح والحواشى ، متسع من الوقت يخلو فيه بنفسه ، فيترك تلك الابحاث جانبا ، وينظر فى القرآن نظرة خاصة يدرك فيها روح الكتاب ومعناه ، لهان الخطب ، وخف وقع المصيبة . بيد أن المفسر والمعلم والمتعلم ، كل أولئك يعتقدون أنهم متى أتموا فهم ما كتبه الكاتبون على القرآن من تلك المباحث ، فقد انتهوا من مهمة التفسير ، وخرجوا من عهدة الامر بتعليم القرآن وتفهيمه للناس ، وتبليغ ماجاء به الى الامة . والا فلماذا ضعف تأثير الكتاب فى القرون الاخيرة مع كثرة المسلمين وكثرة الكاتبين عليه ، وكثرة طلاب العلم الدينى فى البلاد الاسلامية ، ووفرة العلماء ،

وانتشار دروس التفسير فى كل ناحية من نواحى العالم الاسلامى ، وطبع آلاف المجلدات من التفاسير المختلفة ، ووجود المكاتب التى حفظت التفاسير المخطوطة ، حتى أصبح لدى المسلمين اليوم من التفاسير مالم يتيسر وجوده فى أى عصر من العصور الماضية ؟!

القرآن والمعارف الوضعية

فى القرآن آيات تتعلق بالسماء والارض والجبال ، والسحاب المسخر بين السماء والارض ، والرعد والبرق ، والليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، والرياح والبحار والانهار . وغرض القرآن من ذكر هذه المخلوقات هو ارشاد المسلمين الى انها من صنع الله ، ومن آثار قدرته ، يتجلى فى ارتباط بعضها مع بعض ، ثم فى ارتباط جميعها بنظام الحياة العامة ، يتجلى فى جميع ذلك من الدلائل والآيات مايشهد بان لها صانعا حكيما ، ومدبراً عليما ، وأنه واحد غير متعدد ، وكبير متعال ، يعلم غيب السموات والارض وهو على كل شىء قدير

ما ساق القرآن آية واحدة من تلك الآيات المتعلقة بالسماء والارض والكواكب والبحار والجبال وهو يريد أن يبين طبيعة شيء منها ، أو يشرح ماهيتها ، أو يتعرض لما وضعت له علوم الهيئة والفلك والجيولوجيا ، بل ولا علم ما وراء المادة الذي يحاول الوقوف على مهايا الاشياء ، وأسرار الوجود ، لان القرآن ما جاء لغرض من تلك الاغراض التي وضعت لها تلك العلوم ، وكانت موضع بحث الفلسفة في كل عصر من العصور ، وانما جاء لتذكير الناس وهدايتهم وارشاده الى أن الكون صانعا تدل عليه الآيات التي ينطوي عليها ما في الكون من ارض وسماء ، وشمس وقمر ، ونجوم وكواكب ، وان شيئا من ذلك ما كان ينبغي أن يعبد من دون الله ، أو أن يتخذه الناس ارباباً ، مع أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ، ولا نشورا . وما ساق القرآن شيئا من تلك الاشياء الا واتبعه بقوله : (ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) أو نبه العقول الى النظر فيه ، أو نعى

على البشر اهمالهم التفكر فى شأنه ، وما الى ذلك مما يبين غرض القرآن ، ويحدد وجهته. ولكن متأخرى المفسرين عفا الله عنهم ، اغفلوا غرض القرآن ، واعتبروه كأنه لم يكن ، وانقسموا فى تفسير تلك الآيات قسمين : قسم يريد أن يبحث فى طبائع تلك الاشياء ، ومهاياتلك الامور ، من طريق النقل ، والآخر يريد البحث من طريق العلوم المتعارفة فى عصره

عمد القسم الاول الى الاسرائيليات المتعلقة ببدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، وكيفية خلق الكائنات ، فنقلها من أولها الى آخرها ، على رغم ما جاء فى السنة من النهى عن الرواية عن أهل الكتاب نهيا صريحا قاطعا . وعلى الرغم من نهى القرآن عن القول بغير علم ، وعلى الرغم من نهيه على الخصوص عن البحث فى حقائق الاشياء لمعرفة ماهياتها ، والوقوف على مالها من أجناس وفصول ، ليتم تحديدها على حسب ماتقرر فى المنطق (ما أشهدتهم خلق السموات والارض ، ولا خلق أنفسهم . ويسألونك عن الروح ، قل

الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا . ولا تقف ماليس لك به علم) الى غير ذلك من الآيات التى تبين ان العقل البشرى لا يستطيع أن يصل الى معرفة الاشياء، لان مالديه من العلم لا يؤهله لذلك ، فأنه لم يشهد خلق السموات والارض ومتى كان غائبا حين الخلق ، وكانت معارفه مقصورة على ما يستفيده بحواسه ، ويمكن استخلاصه من النتائج المبنية على المشاهدات والمحسوسات، فمن المستحيل عليه أن يقف على حقائق الاشياء . واذا كان هذا شأن العقل، وكان القرآن نفسه مؤيدا لتلك الحقيقة ، وناهيا عن التطلع لمعرفة حقائق الاشياء ، فقد انسد على الباحث طريق العلم من جهة العقل، وطريق الوصول من جهة النقل، وأضحى لا مناص له من تحويل بحثه الى الجهات النافعة فى الدين والدنيا أما الجهات النافعة فى الدنيا فهى معرفة الكميات والكيفيات التى هدت اليها التجارب ، والتى يمكن أن تنفع الناس فى أمور المعاش ، وشؤون الحياة . وقد وصلت العلوم حينما حصرت بحثها فى تلك الدائرة الى أسمى مكانات الفخار ومراتب المجد

وأما الوجهات النافعة فى الدين فهى الاعتبار بما فيها من الدلائل الموصلة الى العلم بأن للكون صانعا عليما ، ومدبرا حكيما ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير

ولو أن من عنى بالنقل من المفسرين اهتدى الى الغرض الذى يريده القرآن ، وراعى ما نهت عنه السنة من الرواية عن أهل الكتاب ، لما حشى تفسيره بخرافات الاسرائيليين المتعلقة ببيان العناصر التى تتكون منها السماء ، وبيان حجوم السموات ، وبيان طبيعة الارض وعناصرها ، وكيفية خلقها ، وما الى ذلك مما يدل على أن هؤلاء النقلين قد شهدوا خلق السموات والارض ، وان كان الله يقول فى كتابه « ما اشهدتهم خلق السموات والارض » . ترى لهؤلاء المفسرين نقولا غريبة فى ماهية السحاب والرعد والبرق ، وكيفية خلقها ، ولهم روايات اغرب فى الرياح وفى البحار والجبال ، كأنهم يعلمون غيب السموات والارض ! ويا ليتهم نقلوا عن علماء أهل الكتاب ، بل حصروا نقلهم ، كما يقول ابن خلدون فيما كان يرويه الجهلة والاميون من عامة أهل الكتاب

القاطنين بالحجاز . وما رأى الناس قوما أضاعوا كتابهم كما أضاعه هـذا القسم الذى عنى بنقل جميع ماافتراه أهـل الـكتاب على الله وأنبيائه وكتبه من الآثار والروايات التي لايقبلها العقـل ، ولا يؤيدها النقـل ، ولا ترتبط بغرض القرآن ، ولا تنفع فى دين ولا دنيا !

ولو أنهم جمعوها على حدة ، ونشروها بين الناس ، لما نالت تلك الحظوة التى نالتهـا يوم رويت على أنهـا تفسير لـكتاب الله . يذكر المفسر من هؤلاء القـوم الآية من كتاب الله ، ثم يسوق ما يشاء من الاسرائيليات على أنه تفسير وبيان لمراد الله ، فأى علاقة بين ماينطق به القرآن المنقـول بالتواتر ، وبين خبر اسرائيلى مكذوب ، يرويه قوم فى جزيرة العرب ، من جهلة أهل الـكتاب وعامتهم !؟ واذا كان تفسير الصحابى ليس حجة مع علمه بلغة العرب ، فكيف يكون هذا الاسرائيلى الـكاذب المفترى على الله وعلى رسوله حجة مقبولة !؟ ولقد جاء القرآن حاكما على الـكتب ، مقصرا على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه مختلفون

(ان هـذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) فسلب هؤلاء المفسرون منه تلك الخاصـة ، وجعلوا خرافات أهل الكتاب حاكمة عليه ، وجعلوه خاضعا لما تقضى به ، فما فيها هو الذى يحدد معنى الآية ، كان لم يكن للقرآن لغة ولا قواعد ، وكأن لم يكن للاسلام أصول ولا نواميس ! ولقـد انتفع المبشرون بتلك الغلطات الفاحشـة انتفاعاً يئن منه المسلمون اليوم ، ويألمون أشـد الألم . ولو وقف متأخرو المفسرين عندما حددت لهم الشريعة ، وتركوا الروايات الاسرائيلية ، لما استطاع المبشرون أن يجـدوا فى القرآن مغمزا لغامز ، أو مطعنا لطاعن

***

وأما القسم الثانى فقد جعل القواعد المألوفة فى عصره أساساً ، وحمل كلام الله عليها . ولهم فى ذلك صنيع يأباه العلم والدين معا . وقد أظهرت الايام خطأهم فيما ذهبوا اليه من اخضاع نصوص القرآن لمعارف التى كانت متعارفة فى أزمانهم ، لان العلم اليوم قد برهن على فساد كثير من

تلك القواعد والمعارف . ولو أنهم أدركوا أن للعلوم غرضاً يخالف غرض القرآن ، وأن للقرآن غرضا لا صلة له بغرض العلوم ، لما وقعوا فى تلك المهاوى المهلكة

تبحث العلوم الطبيعية عن الكميات والكيفيات التى ينالها البحث والاختبار ، وما عدا ذلك فهو خارج عن حدود وظيفتها . أما القرآن فقد علمت غرضه واتجاهه . ويمكن المسلم أن ينتفع بكل العلوم الطبيعية بدون أن يخضع نصوص القرآن لها ، كما يمكنه أن يهتدى بالقرآن دون أن يتعرض لحدود العلوم الطبيعية . ولو تأملت ما كتبه المفسرون فى قوله تعالى (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ، ووجد عندها قوماً . لغمرك العجب من كل ناحية اذ أن الآية لا تحتاج الى شرح ، لانها فى نهاية الوضوح وغاية البيان

تقول العرب: طلعت الشمس على كذا ، وغربت عن كذا ، قال الله فى كتابه (حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم) وقال (وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن

كهفهم ذات اليمين ، واذا غربت تقرضهم ذات الشمال) أى طلعت عليهم وغربت عنهم، فهنا كذلك يكون معنى الآية: حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة كما وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً. وحروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، (ففى) هنا نابت مناب (عن) كما نابت عن (على) فى قوله تعالى ولأصلبنكم فى جذوع النخل، وهذا أمر معروف ومقرر فى لسان العرب. أما مطلع الشمس ومغربها فاستعمالان مشهوران ، قال الشاعر

أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا

فقلت كلا ولكن مطلع الجود

وعلى هذا فمعنى الآية : حتى اذا بلغ ذو القرنين نهاية المعروف من العمران فى ذلك الوقت جهة الغرب ، وجد الشمس تغرب عن عين حمئة . ومقصود القرآن أن يبين مبلغ العظمة التى وصل اليها ذو القرنين يوم بلغ مطلع الشمس ، وبلغ بين السدين ، وبلغ مغرب الشمس فيما ملك فى كل ناحية من تلك النواحى آثاراً تشهد بحبه للخير

ورحمته للبشر . وشفقته على الانسانية ، واقامته معالم العدل ورغبته فى اعطاء كل ذى حق حقه ، الى آخر ما تضمنته قصته المشهورة . ولا ريب أن ما ذكره من الآثار والروايات المتعلقة بالمكان الذى تغرب فيه الشمس لايحتاج اليه القارىء لكتاب الله ، حتى فهم أن (فى) بمعنى (عن) بل لا يخطر له ببال ، فى ذلك الوقت ، المكان الذى تغرب فيه الشمس ، لأن هذا ليس داخلا فى قصة ذى القرنين ، كما لم يدخل فيها المكان الذى تطلع عليه فى نهاية المشرق ، والمكان الذى تغيب عنه فى نهاية المغرب

وكذلك الشأن فيما حاول أهل القسم الثانى من التفسير أن يحملوا عليه نصوص الآية على حسب ما كان معروفا من قواعد علم الهيئة فى ذلك الوقت . فانهم لو جعلوا (فى) نائبة عن (عن) لما خطر ببالهم المكان الذى تغرب فيه الشمس ولما أوجدوا تلك التأويلات ، وخلقوا تلك الاشكالات . وما أوجد تلك الغلطات الفاحشة سوى جعل الروايات الاسرائيلية ، والقواعد العلمية المتعارفة فى زمان المفسر ، أصلا يجب أن تحمل

عليه النصوص . ولو أنهم نظروا الى القرآن نظر من يرى فيه الكفاية ، وأن له أغراضا يجب أن تصان ، لما امتلأت التفاسير بالاسرائيليات الموضوعة ، والتأويلات الخاطئة والاشكالات المفتعلة

ولو انهم جعلوا القرآن أصلا مستقلا بنفسه وتركوا الروايات الاسرائيلية المكذوبة جانبا ، لسلموا من التأويلات التي تخالف الدين والعقل معاً . واعتبر ذلك بما قالوه فى تفسير قوله تعالى :

(وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ـ ياجبال أوبى معه والطير ـ وألنا له الحديد أن أعمل سابغات وقدر فى السرد) فقد ذكر متأخرو المفسرين فى تفسير تلك الاية ما وصل اليهم من الروايات التى نقلها جهلة أهل الكتاب القاطنين ببلاد العرب ، فشوهوا وجه الآية وأتوا بما لا يصدر من عاقل ، فضلا عن عالم يريد بيان مراد الله . على حين أن الاية لو قطع النظر فى فهمها عن الروايات الاسرائيلية لما احتاجت الى شيء مما قالوه ، لانها فى نهاية الوضوح وغاية

البيان ، فهى تشير الى أن داود قد سخرت له الجبال تسخيرا تسنى له فيه استكشاف مافيها من المناجم والمنافع المادية، فكانت معه بهذا التسخير تسبحن الله وتنزهنه عن أن يكون خلقها عبثا بدون فائدة تعود على الناس فى معاشهم، وترتبط بهم فى مصالحهم . فتسخير الجبال وإلانة الحديد، كلاهما كان لداود بمقتضى قواعد مبنية على التجارب . شأن الصنائع ، وسنة الانتفاع بمخلوقات الله جل شأنه، وأين هذا مما قالوه فى تفسيرها ؟ سامحهم الله وعفا عنهم !!

القرآن وسنن الوجود

فى القرآن آيات ينسب فيها الفعل الى الله، على معنى ان سنته هى التى قضت بوجود ذلك الفعل ، وانه تم على وفق ما وضع عليه الكون من ربط الاسباب بالمسببات، والعلل بالمعلولات

وذلك كقوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن وكنا فاعلين . وآتيناه من كل شىء سببا . فاتبع سببا . حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة . قلنا يا ذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا . قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا . واما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا . ثم اتبع سببا . حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا . كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا . ثم اتبع سببا . حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما . آتونى زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا . قال هذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا . وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا . وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا . الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا . أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا . قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا . قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا . قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)

يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء والله خلقكم وما تعملون.

الى غير ذلك من الآيات التى تنسب فيها الافعال الى الله ، والمراد انها وجدت فى الكون على وفق ما اراده من جعل الاسباب مؤدية الى مسبباتها، وربط المعلولات بعللها ولو أن المفسرين تنبهوا لذلك لما رووا فى تفسيرها من الروايات ما يدل على ان الله جل شأنه قد فعل تلك الاشياء على سبيل المعجزة ، أو على غير قاعدة، أو على غير اطراد، وسنة مقررة فى الاسباب مع مسبباتها . ولما أوردوا من الاشكالات ما ينبىء بأن هناك تناقضا بين نسبة الافعال الى الله تارة ، والى العبد تارة أخرى ، لان الآيات صريحة فى أن لله سننا فى ايجاد الافعال ، ومن تلك السنن ما يدل على أن الافعال وقعت من غير قصد ولا ارادة كحركات الاشجار والنباتات . ومما يدل على أنها وقعت مع الاختيار والارادة، كحركات الانسان الاختياريه . ولا ريب أن وقوعها بعد الاختيار يسوغ نسبتها الى العبد كما ان وقوعها على وفق السنن الالهية يسوغ نسبتها الى الله فلا تدافع ولا تناقض

وبمراعاة هذين الاعتبارين الصادقين يمكن ضم الآيات التى فيها نسبة الفعل الى الله ، الى الآيات التى فيها نسبة الفعل الى العبد ، من غير أن يخطر ما قالوه بالبال ، أو يهجس بالخاطر ولكن القوم جعلوا مذاهب المتكلمين أصلا يجب تطبيق القرآن عليه ، ومن هنا جاء التطبيق بتلك الاشكالات ، ونتج عنه ذلك التناقض الذى خلقوه خلقاً ، واشتغلوا به من غير ما حاجة

ولولا انهم جعلوا القواعد المذهبية أصلا لامناص من حمل القرآن عليه ، لما جاء وافى تفاسير ايات الكتاب بما يلغى سنن الله فى خلقه ، ونواميسه فى كونه ! ولما وقف المسلمون عن البحث فى علل الحوادث ومماشيء الربط بين الاسباب والمسببات ! ولما كان استكشاف قوى الطبيعة على غير ايديهم ، وفى غير بلادهم . ولكن أبت الروايات والمذاهب الكلاميه الا أن تحمل مافى القرآن ، من بيان سنن الله فى خلقه ، على أنه وقع على سبيل خرق العادة ! أو كان بمقتضى اعتبارات لا صلة لها بنظام الوجود ولا علاقة لها بسنن الله فى كونه . كأن

لم يصل الى مسامعهم قول الله فى محكم كتابه (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض) وقوله : « أنا كل شيء خلقناه بقدر » أى بنظام مطرد ـ وقوله : « سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا »

ولو أنهم لاحظوا ان للمعجزات موضعا ، وللاشياء الجارية على وفق السنن الالهية موضعا آخر ، لما خبطوا ذلك الخبط ، وخلطوا ذلك الخلط . على أن للمعجزات نظاما خفيت علينا أسبابه فهى على وفق سنن خاصة يوجدها الله فى أزمنة الانبياء ولكن القوم ولعوا بتفكيك ما بين الاسباب والمسببات من الروابط ، وحل ما بين العلل والمعلولات من التعاقد والتلازم . كأنه مقصد شرعى ، وغاية ندب اليها الدين ، وحث عليها صاحب الشريعة !!

واعتبر ذلك بما قالوه فى تفسير قوله تعالى (ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم . انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة

ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون) فانك تجد نقولا وروايات وتأويلات لا صلة لها بمعانى تلك الايات الكريمة ولا صلة لها بما ترمى اليه ، وتشير نحوه ، من سنن المفسدين التي يتبعونها فى تمزيق الامم ، ومحو الوحدة القومية ، وجعل الامة الواحدة شعبا مختلفة ، وأحزابا متخاذلة واستضعاف طائفة واعلاء أخرى ، واحياء فريق ، وتعذيب فريق آخر ، وما الى ذلك مما نراه الان قاعدة السياسة الاستعمارية ، وخطة سائسة الاستعمار فى استعباد الامم ، بعد تحويلها الى أفراد متنافرة ، وشيع متعادية ، وبعد افناء نزعاتها القومية ، ومحو أخلاقها الكريمة ، وشيمها الفاضلة ، وبعد اضعافها بالتعذيب ، والذبح ، والنفى ، والاضطهاد ، وسائر ضروب الافساد فى الارض . ذلك بعض ماتضمنته الاية الكريمة ، وفيه من الدلالة على مناهج المفسدين فى الارض مالا يحتاج الى بيان ، أو يفتقر الى توضيح على أنه ان كان لابد من تفسير تلك المعانى ، ففى تفصيلها وضرب الامثال

لاثباتها ، وذكر المستندات التاريخية لتأييدها مايغني المفسر عن ذكر ماروواه جهلة بنى اسرائيل وعامة أهل الكتاب القاطنين ببلاد العرب

وكذلك القول فى تفسير قوله تعالى . (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض)الى آخر الآية فقد أطنب متأخرو المفسرين فى ايراد ماروواه بنو اسرائيل ، ونقله جهلة أهل الكتاب ، على حين أن الاية لايفسرها سوى انعام النظر فى سنن الله فى من يرغبون فى دفع الظلم عنهم . يستميتون فى سبيل دفع عادية المعتدى عليهم ، ويبيعون نفوسهم رخيصة كما يستقلوا فى تدبير شؤونهم ، ويتحرروا من استعباد عدوهم فيصبحوا أئمة يرثون أرضهم بدلا من الغاصب ، ويتحكمون فيها بعد ان يرفعوا يده عنها ، فيصيرون سادة وحكاما فى بلادهم بعد أن يشتبكوا مع الغاصب فى نضال ينتهى بفوزهم ، وتقرير حقوقهم

القرآن والاندية السياسية

فى القرآن من الايات الدالة على أن بنى اسرائيل بذلوا

فى سبيل الخلاص والتحرر من فرعون وقومه ، ماأدى الى استقلالهم وتحررهم من نير العبودية ،ومهالك الذل ومخاطر القهر ، وقد أشار القرآن الى ذلك فى قوله « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة »

وما كانت بيوت بنى اسرائيل التي أمر الله موسى وهارون بان يتبوأها لقومهما الا أندية سياسية تبحث فى أقرب الطرق للخلاص وأنجع الوسائل للتحرر . فكانت بيوتهم على تلك الصفة ، وكانت بيوت موسى وهارون قبلة يؤمها بنو اسرائيل ، لان بها الندوة الكبرى والمجمع الذى تصدر منه البرامج العملية ، والسنن التى يجب اتباعها

وان التاريخ ليشهد بان الى الاندية السياسية يرجع كل الاثر فى تحرير الامم ، وخاصة اذا كان المرجع فيها الى زعيم كموسى ، ومشير كهارون ، فهل تنبه المفسرون لذلك مع وضوح الاية وجلاء المعنى ؟

القرآن والروايات الاسرائيليه

قاتل الله الروايات الاسرائيلية ومنقولات أهل الكتاب

فانها صرفت عقول المفسرين عن التفكير فى معانى القران ومراميه ، إذ جعلوا تلك الروايات أصلا يرجع اليه ، وقاعدة يجب انزال القران على حكمها. فما ورد عنهم فهو المفسر للاية . يغني عن اللغة . ويغني عن العقل ، ويغنى عن المشاهدة . ويغنى عن التجربة !!

نظام غريب ، وسنة درج عليها المفسرون ، الا من عصم الله ، فصرفوا عقول الناظرين فى القران عن ارشاداته ونصائحه ، وحولوهم الى خرافات لاتعقل وروايات لاتفهم ، ونقول لا ترتبط بنظام يرجع الى أسباب ، أو ترتيب يعقل له وجه ، وأى عظة تستفاد من خرافات بني اسرائيل ، ومرويات أهل الكتاب ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فيهم .

« لاتسألوا أهل الكتاب عن شىء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا » أخرجه البيهقى فى السنن ، فى الشعب والديلمى وغيره

وأخرج عبد الرازق وابن جرير عن ابن مسعود رضى الله عنه قال (لاتسألوا أهل الكتاب عن شىء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا فان كنتم سائلين لامحالة ، فانظروا ماوافق كتاب

الله فخذوه ، وما خالفه فدعوه) وقد بوب البخارى لذلك بابا خاصا سماه (باب قول النبي صلى الله عليه وسلم، لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء)

فقال حدثنا موسى بن اسماعيل حدثنا ابراهيم أخبرنا ابن شهاب عن عبيد الله ابن عبد الله ان ابن عباس رضى الله عنهما قال (كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل على رسول صلى الله عليه وسلم أحدث، تقرؤنه محضا لم يشب ، وقد حدثكم ان أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه . وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ؟ ألا ينهاكم ماجاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ والله مارأينا رجلا منهم يسألكم عن الذى أنزل عليكم !)

فى القرآن آيات تتعلق بأهل الكتاب وأنبيائهم ، لو نظر اليها المفسرون نظرة منفصلة عما ورد فى الاسرائيليات لاستقام لهم أمر التفسير ، ونجوا من الاشكالات التى ماكانت لتوجد لو فسرت الايات تفسيراً مستقلا قائما بنفسه،

غير منظور فيه الى مافى التوراة ، والى مافى التلمود (شرح التوراة) والى مارواه عامة أهل الكتاب ، وجهلة بنى اسرائيل — من ذلك قوله تعالى (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) فلقد اضطرب فيها رأى المفسرين ، وتشعب قولهم فى تفسيرها تشعباً كان يمكن تجنبه لو نظر الى ماورد فى القرآن بشأن أهل الكتاب جملة ، ثم ضم كل نظير الى نظيره ، وأضيف كل شىء الى شبيهه ، ثم كان مرجع التفسير بعد ذلك الاعتماد على تفسير الايات بعضها ببعض ، دون نظرة الى رواية أو حكاية ، وماصح من الروايات يعتبر خبراً منفصلا مادام غير منطبق على ماترمى اليه الآيات القرآنية

ومعنى الاية : وان من أهل الكتاب الذين يتلون الكتاب حق تلاوته ، والذين اذا سمعوا ماأنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ، مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، والذين اذا يتلى عليهم القرآن قالوا امنا به ، أنه الحق من ربنا ، والذين لم يشتروا

بايات الله وأيمانهم ثمنا قليلا ـ الا ليؤمنن بالقران وما ورد فيه بشأن عيسى قبل موت ذلك المؤمن، ويوم القيامة يكون القرآن أو الرسول عليهم شهيدا

الى ذلك يرشد ماورد فى القرآن من قوله تعالى «الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ،واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به،انه الحق من ربنا..» وقوله تعالى(الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به» وقوله تعالى (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بايات الله ثمنا قليلا،أولئك لهم أجرهم عند ربهم ،ان الله سريع الحساب) الى غير ذلك من الايات التى تدل على أن من يؤمن بالله وبرسوله من أهل الكتاب لا بدأن يكون ممن يتصف بتلك الصفات

وقد تقرر فى الاصول (أن المطلق يحمل على المقيد) وعلى حسب هذه القاعدة يكون قوله تعالى (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به) مقيداً بأهل الكتاب الذين يتصفون بما يؤهلهم للايمان ،ويحول بينهم وبين العناد

وعلى ذلك يستقيم تفسير الآية ، وتكون غير دالة على أن عيسى عليه السلام سينزل قبل قيام الساعة وان أهل الكتاب سيؤمنون جميعا به فى ذلك الوقت كما انها تكون غير دالة أيضا على مايقوله بعض المفسرين من أن كل أحد من أهل الكتاب لايموت حتى يؤمن بعيسى عند خروج روحه ولهم فى ذلك تأويلات وتعسفات ، ألجأتهم اليها روايات لاصلة بينها وبين مدلول الاية ، وكان عليهم أن ينظروا الى الاية نظرة خاصة ، ثم ينظروا نظرة أخرى الى تلك الروايات ، فما كان منها موضوعا نبذوه . وما كان منها صحيحا أقروه ، وعينوا له موضعا خاصا يذكر فيه بدون أن يجبروا الآيه على أن تتصل به أو يجبروه على أن يتصل بالآية

وكذلك قوله تعالى « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب » فلقد نقلوا فى تفسير تلك الآية ما لا يتفق مع النقل ، ولا يتطابق مع العقل ، مع ان الآية فى ذاتها غير مفتقرة الى الاستناد على رواية أو الاعتماد على حكاية . لان معناها : ولقد اختبرنا سليمان وفتناه بالمرض

الذى جعله على كرسيه جسداً لا حراك به ، شأن المريض اذا تمكن منه المرض واشتد به الالم ، ثم أناب ورجع الى صحته وشفى من مرضه

وأين هذا مما قالوه من أن الله فتن سليمان والقى على كرسيه الذى كان يجلس عليه للحكم ، وادارة شؤون الملك ، شيطانا يتحكم فى سليمان وفى بيته وفى ملكه جزاء له على معصية ذكروها فى رواياتهم ؛ ويأبى العلم أن يقرب منها الان فيها نسبة ما لا يليق الى رسول اصطفاه الله واختاره من خلقه ، ولكن ما الحيلة فى قوم يرون أن ما يرويه جهلة أهل الكتاب مقدم على ما يدين به المسلمون جميعا من عصمة الرسل ؟ وفيما ذكروه فى داود ويوسف وابراهيم ما يكفى للحكم بان القوم قد شغفوا بالاسرائيليات الى درجة جعلتهم يتعامون عما اجمع عليه المسلمون من عصمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ولولا الحرص على ذكر الاخبار الاسرائيلية لما كان فى القرآن دلالة أو شبه دلالة ولا رمز ولا تلويح لما وصموا به

رسل الله وخيرته من خلقه ، ولكن القوم جعلوا الروايات أصلا وجعلوا كتاب الله فرعا يجب تطبيقه على ما فى تلك الروايات، فهى المبينة لمراده والمفسرة لمعانيه ! فكان من وراء عملهم للمبشرين مرتع وخيم شغلوا به المسلمين ، وشغلوا به النابتة الحديثة !! والقرآن والاسلام والوحى المعصوم ، كل أولئك يبرؤون من ذلك . اولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ! الله يعلم حيث يجعل رسالته!

القرآن والدار الآخرة

فى القرآن آيات تدل على ماسيصير اليه أمر العالم قرب قيام الساعة ، من انشقاق السماء ، وتكوير الشمس، وتفجير البحار ،ودك الارض والجبال ، وطى السماء ،والنفخ فى الصور ، وغير ذلك مما ذكره القرآن ذكرا خاليا من بيان الكيفيات والاوضاع ، لان هذا لايتعلق بالجهة التى جعلها القرآن موضع اعتبار وعظة وتخويف وزجر ،فى تلك الايات الكريمة

لو أن متأخرى المفسرين وقفوا عند الموقف

الذى وقفه القرآن ، وتركوا الكلام فيها كما تركه القرآن ، لما حشوا تفسير كتاب الله بما لا يصح فى النقل ، ولا يقبل فى العقل ، ولما خلت نفوس المسلمين من الاعتبار والازدجار ، وخوف الله ، وما الى ذلك من الملكات النفسية التي أراد القرآن تكوينها فى نفوسهم بتلاوتهم تلك الآيات وتأمل ماجاء فيها ، ولكن شغلتهم الاسرائيليات عن تدبر مايريده القرآن فكانت موضع تأملهم ، ومحل اشتغالهم ، دون ماجاء به الوحى ، واحتواه كتاب الله

وفى القرآن آيات تتعلق بالجنة وما فيها من حور وولدان وقصور وغلمان ، وانهار من خمر ، وعسل ، وماء ، ولبن ، وسائر ما قصه الله من ضروب النعيم . وصنوف السرور ، مما تشتهيه الانفس ، وتلذ الاعين . وآيات أخرى تتعلق بالنار وما أعد الله فيها للكافرين من صنوف العذاب ، وأنواع الالم ، والزبانية ، والملائكة ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم فى ذلك اليوم ، وقد استوفت تلك الآيات بيان ما يريد الله بيانه من شؤون الجنة وشؤون النار . ولا ريب

أن أحوال الجنة وأحوال النار من أمور الغيب التي لا تعلم الا من طريق الوحي ، ولو أن متأخرى المفسرين ، عفا الله عنهم ، لاحظوا هذا المعنى عند تفسير تلك الايات لما نقلوا في تفسيرها ما روى عن جهلة أهل الكتاب ، وما وضعه الوضاعون في الملة الاسلامية ، وبين علماء الحديث انه موضوع ، فأوجدوا بذلك طريقا للمبشرين ، ودخلا للطاعنين ، وتشويشا في نفوس المفكرين من أهل الملة ، مع أن القرآن بريء من تلك الامور ، وهو منزه عما لا تقبله العقول ، أو تحيله المدارك . فهو كما يقول في وصف نفسه « وانه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » ولولا تأويلات هؤلاء المفسرين ، وتفاسيرهم التي ابتدعوها ، لما وجد في القرآن مطعن لطاعن ، أو مغمز لغامز ، ولقد أنصفه أحد المبشرين إذ يقول « للمسلمين كتاب لو تركوه بدون تفسير لما أقنا في بلادهم يوما واحداً ولكنهم يهدمونه بايديهم »

القرآن والوعد والوعيد

فى القرآن آيات تتعلق بالوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، وقد استوفى القرآن الكلام فى هذا القسم استيفاء بلغ النهاية وأربى على الغاية ، على حين انه يأتى فى كل موضع بما ينطبق على قوانين الوعظ، وما تؤيده قواعد علم النفس، يتآخى مع العلم، ويتطابق مع مقتضيات الفطرة

وهل بعد وعظ الآله تحتاج النفوس الى وعظ، وهو الذى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور! بيد أن متأخرى المفسرين عفا الله عنهم، رأوا ان ماذكره القرآن يحتاج الى تتميم وتكميل ! فكملوه بالاسرائيليات وزادوا عليها نقل آثار فاسدها المتصوفون ومن كان على أديانهم فناء الملكات الاسلامية ، وتبديل الاخلاق المحمدية ، فجاءت تفاسيرهم مملوءة بما لايتفق مع العقل وصحيح النقل . على حين أنها قد شغلت نفوس المسلمين عن النظر فى اغراض القرآن ومقاصده ، فضلا عما جاء فيها من المباحث التى تتعلق بجواز خلف الوعيد ، وبأن يكون ماورد فى القرآن فى باب الوعيد لايقصد به الاخبار عن مآل

العصاة والمخالفين فى الدار الآخرة ، وانما يقصد به التخويف والزجر ، فهدموا بذلك باب الوعيد ، وقسم الترهيب ، وأضاعوا أهم قسم أراد به القرآن تهذيب النفوس ، واصلاح حال البشر ، حيث أفهموا المسلمين أن وعيد الله يجوز أن يتخلف ، وان ماورد فى القرآن بهذا الشأن لا يراد به ظاهره ، بل يراد به زجر النفوس وتخويفها فحسب ، بل جوزوا فوق ذلك أن يدخل الله المؤمنين النار ، والكافرين الجنة ؛ ذكروا ذلك فى تفسير كتاب الله فجنوا على الالفاظ وعلى المعانى ، وانحل بأيديهم ماعقده القرآن فى الوعد والوعيد ، وربما كان لهذا الصنيع تأثير غير قليل فيما يشاهد اليوم من انصراف المسلمين عن ملاحظة وعيد الله فى اتيانهم المعاصى وعدم استشعارهم هيبته حين اقتراف المنكرات ، مع مبالغة القرآن فى الوعظ ، واستيفائه هذا الباب ايما استيفاء ، وأى معنى للخوف ما دام الوعيد لا يراد به ظاهره ؟! وأى دعى الى تذكر الحساب والعقاب مادامت صلاة ركعتين أو ركعات ، أو اعتقاد ولى ، أو

تلاوة دعاء ، أو تلفظ بحزب ، أو قراءة لورد ، تضمن دخول الجنة ، والتمتع بما أعده الله فيها للمؤمنين !!

***

اختل نظام الوعد والوعيد لدى المسلمين من اليوم الذى تركوا فيه الاعتبار بما ورد فى القرآن ، وقصروا اعتبارهم على تأويلات المتكلمين ، ومبتدعات المتصوفة . والمتكلمون يجوزون خلف الوعيد ، ويجوزون كذلك عقلا أن يدخل الله المؤمنين النار ، ويدخل الكافرين الجنة ، ولا شك أن هذين التأويلين يتناقضان مع صريح القرآن كل التناقض ، والمتصوفة تركوا مسئلة الجواز جانباً ، وشرعوا يضعون للناس مبتدعات جديدة ، وقواعد مستحدثة يقررون فيها أعظم ثواب لاصغر عمل مبتدع ، كما يقررون أكبر عقوبة لاحقر ذنب مبتدع ، جعلوا الجنة وقفا على ماوضعوه من عبادات ، وأوراد ، ومعتقدات ، وآداب للسلوك ، ورووا فى ذلك أحاديث موضوعة ، وآثارا مخترعة ، وجعلوا النار كذلك وقفا على من اعترض عليهم ، أو خالف

معتقدهم، أو تنكب طريقهم، ورووا فى ذلك من موضوعات الحديث، ومفتريات النقل، مالا يجرؤ عليه مسلم يقرأ كتاب الله وسنة رسوله. ولو أن المفسرين تركوا هؤلاء القوم وشأنهم وأبوا أن ينقلوا فى تفسير كتاب الله ما افتروه من الاحاديث، وابتدعوه من المعتقدات والاعمال، لظل قسم الوعد والوعيد بمنجاة من التشويه، ولكان المسلمين منه موعظة وذكرى، بيد أن الايام شاءت أن يخضع هذا القسم لجهالة المتصوفة، كما خضع غيره لمبتدعات الفرق، ومرويات أهل الكتاب حتى أصبح المسلمون اليوم فى أشد الحاجة الى من يصلح لهم نظام التعليم وأمر التربية، فقد اختل شأن المعارف الاسلامية، وأصبحت مشتتة بين الاسرائيليات، والمبتدعات، ومغطاة بمباحث تافهة، واشكالات غاطئة. يحار المسلم حينما يريد أن يقف على المعارف الاسلامية المضبوطة، فاذا رجع الى كتاب الله وجد المفسرين اختلافا فى التأويل، واضطرابا فى نقل الروايات. فلاهم حرروا مانقلوه، مع شدة عناية

المسلمين بأمر النقل ، وحرصهم على تحرير المروى ، وتمييز غثه من ثمينه ، وصحيحه من باطله ولا هم حرروا معانى التأويل ، مع أن القرآن نزل بلسان عربى مبين ، ولا هم تركوا البحث فيما تحرر فى موضعه من مسائل العلوم والفنون بل جعلوا تفسير كتاب الله سوقا يمكن لكل انسان أن ينقل اليه ماعنده من صنوف البضائع . فنقلوا فيه النحو كله ، والصرف جميعه ، وعلوم البيان بأسرها ، وعلم الكلام برمته ، وأصول الفقه وعلوم الفقه ... !!

أما خرافات أهل الكتاب ، وجهالاتهم ، ومفترياتهم فما تركوا منها شاردة ولا واردة الا ذكروها فى تفسير كتاب الله ، وكأنهم لم يكتفوا بذلك فذكروا تأويلات الباطنية ، واشارات المتصوفة ، كما فعل ذلك النيسابورى فى تفسيره ، والالوسى وغيره ، كأنهم أرادوا أن يجعلوا تفسير الكتاب دائرة معارف تحتوى جميع ماوصل الى علم المؤلفين ، وياليتها كانت دائرة محررة أو مبوبة ، أو مبرهنا عليها ، أو مرتبطة بمصالح الناس فى معاشهم ومعادهم ، ولكنها معارف خالية

من التحرير ، ومن التبويب، ومن التداول،ومن الارتباط بمصالح الناس الدينية والدنيوية .معارف كانت علة مصائب المسلمين ، ومبعث انتشار الجمود والارتباك فى نفوسهم ومدركاتهم ، ولو أنها ذكرت فى غير التفسير لما أعارها الناس شيء هذا الاهتمام ، ولكن صروف الدهر نكبت بها المسلمين فملأوا بها تفاسيرهم،ووكلوا اليها اصلاح معاشهم ومعادهم ،فتم لهم على يديها ماهم عليه اليوم من استيلاء الاجنبي على جميع بلادهم ، وافتقارهم اليه فى جميع شؤونهم وأى مصيبة هى شر من تلك المصيبة !وأى داهية هى افجع من تلك الداهية : وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم!

وأى امة اضاعت كتابها كتلك الامة التى يرى علماؤها ان فى تفسير الآية الواضحة عشرة أقوال فاكثر ، كلها متضاربة متخاذلة ؛ فهل يتصور العقل البشرى ان ما نزل بلسان عربى مبين يؤل امره الى ان يكون فى واضح بيانه ومحكم لفظه ، مجالا لذكر اقوال متناقضة وآراء متخاذلة !!

على المسلمين اليوم اذا ارادوا ان يعيدوا مجدهم السالف

وعزهم الماضى ، ان يتخلوا عن تلك التفاسير جملة ، وان يحرروا معارفهم الدينية ، وان يرجعوها الى كتاب الله ، والى ماصح من سنة رسوله ، وان ينبذوا ماعدا الكتاب والسنة ، وان يقتصروا فى آيات الاحكام على ماصح نقله عن الائمة المجتهدين ، اما ماعدا آيات الاحكام فلا يؤخذ الا من الكتاب والسنة ، على ذلك مضى السلف ، والى ذلك يشير الرسول فى قوله (تركت فيكم ما إن تمسكتم به ان تضلوا بعدى : كتاب الله ، وسنة رسوله)

المعارف الاسلامية

أصول المعارف الاسلامية هى الكتاب والسنة والاجماع والقياس . وقد رجع المحققون من علماء اصول الفقه الاجماع والقياس الى الاصلين الاولين لان الاجماع لا بد له من مستند منهما ولأن القياس لا يكون الا بعد ثبوت حكم الاصل بالكتاب أو السنة : فاليهما يرجع الامر كله فى أمر المعارف الاسلامية . على ذلك درج السلف وعلى ذلك مضى الـ انقون

الاولون .وقد قال صلى الله عليه وسلم (تركت فيكم ماإن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى: كتاب الله وسنة رسوله)

وقد كمل الدين قبل موت الرسول وتمت المعارف الاسلامية بنزول قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »

وكلت الشريعة الاسلامية الى الامام الاعظم صيانة المعارف الاسلامية وحمايتها عمليا من الزيادة والنقصان، فكان أبو بكر يعاقب المبتدع ويتحرى فى اثبات مايروى عن صاحب الشريعة ،وتبعه عمر وسائر الخلفاء الراشدين من بعده

كان الامام يصون المعارف الاسلامية وكان العلماء يرون أن من فروض الكفاية حماية تلك المعارف وصيانتها من التأويل والتحريف فخصصوا من بينهم جماعة للقيام بذلك الفرض، وكانت الأمة من ناحية أخرى تدرك أن عليها أن تراقب تنفيذ فروض الكفاية لان ذمتها لاتبرأ الا بتحصيل تلك الفروض على أنظمتها المعروفة، كما هو معلوم ومقرر فى أصول الفقه

ومن تلك الفروض مراقبة الامر بصيانة المعارف الاسلامية، فكان الخليفة مع العلماء يتولون تنفيذ ذلك الفرض ويقومون بصيانته، وكانت الامة تراقبهم فى التنفيذ وتشرف عليهم وقت العمل. من أجل ذلك حفظت المعارف الاسلامية فى الصدر الاول وصينت أتم صيانة، وناهيك بأمر يتولى الامام الاعظم صيانته، ويقوم العلماء على حراسته، وتشرف الامة على الوفاء به. فلا الحكومة تريد الابتداع، ولا العلماء يريدون التأويل، ولا الامة تسمح برؤية شيء من ذلك

فما وجدت بدعة فى العقائد، لأن تأويلات المتكلمين كانت غير موجودة فى ذلك العهد، ولا وجدت بدعة فى الاخلاق والاعمال، لان بدع المتصوفة لم تكن موجودة فى الصدر الاول. ولا كانت آراء تقوم مقام نص الكتاب أو حديث الرسول، ولا كان للتقليد أثر، ولا لمتابعة الرجال وجود، لان الجميع كانوا يرون ان المعارف الاسلامية لا تؤخذ الا من الكتاب والسنة، وان ماعداهما فهو غير معصوم ولا واجب الاتباع، وان أمر الدين قد تم وكمل فلا داعى يدعو

الى آراء الرجال ومبتدعات الفرق ، والنفوس لم تكلف بأن تؤمن بغير ما أنزل الله من تأويلات الفرق وتحريفات أهل الكلام ، وأن تعمل بغير ما ورد به الكتاب والسنة من مبتدعات المتصوفة ومخترعات أهل الطرق

اختل أمر المعارف الاسلامية يوم انفصلت رتبة الخلافة عن رتبة الملك ، يوم أصبح الامر والنهى بيد المتغلبين من أهل الشوكة وذوى البطش والغلبة ، وأصبحت الوظائف الدينية بيد خليفة ليس له من الامر شيء . ففى ذلك الوقت عجزت الخلافة عن صيانة المعارف الاسلامية واستبد المتغلبون بالامر ، لا يرجعون لشريعة ولا ينقادون لكتاب ولا سنة

وفى ذلك الوقت اشتغل العلماء بمحاربة البدع ومحاربة الخصوم على حين أن الامراء قد أبوا أشراكهم فى تدبير الدولة لان الخلافة التى كانت تسوس الدنيا بما ورد فى الدين قد انحلت وذهبت

ومن هنا تنحى القائمون بالامر عن صيانة المعارف الاسلامية ، وابتعد العلماء عن القوة التنفيذية التى كانت تحمى

تلك المعارف، وصادف فى ذلك الوقت أن تفاقم امر البدع واشتدت شوكة بعض الطوائف المارقه فاشتغل العلماء بمحاربتهم ومجادلتهم، فنشأت آراء، ووجدت مذاهب، واغتنم الوضاعون من أعداء الاسلام تلك الفرصة فوضعوا من الاحاديث ما يأتى على أصول الاسلام وقواعده، فشغلوا أيضا قسما من العلماء، وبذلك انهدم الركنان الاساسيان اللذان كان موكولا اليهما صيانة المعارف الاسلاميه ومتى لاحظنا ما أصاب الامة من فتن الطامعين فى الملك وفتن أهل الكلام ووضاع الحديث وسائر ما منيت به الملة الاسلامية. فى ذلك الوقت من الفتن السياسية والمذهبية، أدركنا أن الركن الثالث وهو مراقبة الامة قد ناله ما نال أخويه، فلا الامة بقادرة على أن تراقب العلماء والحكومة، ولا الحكومة براغبة فى صيانة المعارف الاسلامية، أما العلماء فقد شغلهم الجدل ومزقت وحدتهم المحن المذهبية، فلا جامعة تجمعهم، ولا وحدة تهمهم ولا حكومة تلزمهم بخطة معينة، ولا أمة تطالبهم بالوقوف عند ما أمر الله، لان نظام الامة الاسلامية فى ذلك الوقت كان

قد اختل اختلالا تناول الوحدة السياسية والوحدة الاخلاقية والوحدة الاسلامية. ولا ريب أن تمزق تلك الوحدات يؤدى لامحالة الى تمزيق وحدة المعارف الاسلامية. من أجل ذلك اختل نظام تلك المعارف اختلالا ظهر أثره فيما بعد ظهوراً لايزال يئن منه المسلمون الى اليوم

فى الكلام مذاهب. ولأهل السنة آراء ترجع الى ماقاله الاشاعرة، وآراء أخرى ترجع الى ما دونه الماتريدية، وبين الاشاعرة أنفسهم اختلاف كما بين الماتريدية وبين الحنابله ومنشأ ذلك كله مايشهد به تاريخ تلك المقالات من أنها قيلت للدفاع، وذكرت فى معرض الجدل. فأى ضرر ينشأ من تركها اليوم، وقد زالت أسبابها، وفقد مايدعو اليها، ومات من وجدت لأجله!؟

وفى كتاب الله غنى عن كل ذلك، وما أجمع عليه السلف من صفات الله وما يجب له وما يجوز عليه قد استوفته الشريعة استيفاء ليس بعده مطمع لطامع، ولا زيادة لمستزيد

يقرر علماء الكلام أن قواعدهم ماكانت الا للدفاع

ورد عادية الخصوم . . . اذاً فهى سلاح يتغير تبعاً لتغير المهاجمين ، ويتبدل لتبدل الطاعنين . أما العقائد فهى ثابتة لاتتغير ولاتؤخذ من علم الكلام ، ولايقبل فيها رأى أهله

ومن هنا ينبغى للامة الاسلامية أن تنبذ من علم الكلام مالا حاجة تدعو اليه اليوم ، وتعمل لايجاد طرق جديدة تستطيع بها منازلة الخصوم الجدد من الملحدين والمبشرين ورجال السياسة ، فان علم الكلام عندهم موضوعه المعلوم من حيث هو ، ولا ريب أنه يتناول تلك المواضيع التى أصبحت مطاعن يوجهها الخصوم للاسلام وأهله

ومن الغريب أن للقرآن عناية بالرد على أهل الكتاب ولاهل الكتاب عناية لاتقف عند حد بالطعن فى الاصول الاسلاميه على حين أن الكلام وأهل الكلام لم يعيروا تلك المواضيع أدنى أهمية ، بل اشتغلوا بالمجادلات الداخلية واهتموا بمبارزة المجادلين من أهل الملة ، وأغفلوا أهل الكتاب جملة ، وتركوا الرد عليهم بالمرة

تعرضوا فى علم الكلام لمسئلة الامامة وقد أصبحت اليوم

تلك المسئلة موضع أخذ ورد وانتقاد وطعن بين خصوم أهل الملة، فعلى المجددين لعلم الكلام أن يجعلوها موضع اهتمامهم ومحل عنايتهم فيبحثوها على حسب ماتقضى به الاعتراضات الحديثة لا على حسب ماقضت به الاعتراضات القديمة

يجب أن يكون علم الكلام دفاعيا فحسب فلا يلزم المسلمون أن يعتقدوا ماقرر فيه مهما عظمت منزلة صاحب القول ومكانة المدلى بالرأى لان العقائد الاسلامية يجب أن تؤخذ من الكتاب ومن السنة المتواترة. وبذلك يمكن أن يعاد تنظيم المعارف الاسلامية فى قسم العقائد

وأما فى الاخلاق فيجب أن تنبذ آراء المتصوفة بالمرة وأن يرجع فيها الى ماقى كتاب الله وما صح من سنة رسوله

وأما فى العمليات فيجب أن تكون معارف كل مذهب محررة على حسب قواعد امام ذلك المذهب فتبعث أصوله ويعاد تطبيق الفروع على الاصول من جديد وبحسى اختلاف المتأخرين جملة ويزال تعدد الاقوال فى مسألة واحدة، فان هذا التشويش ماحدث الا بعد ان اختلط أمر التصنيف

وفسد نظام التاليف والا فان ماتقرر فى باب الاجتهاد من علم أصول الفقه يقضى بأن لايذكر فى المذهب الا القول الذى يؤيده الدليل ويصح نسبته الى الامام مع ملاحظة أن الائمة قد صرحوا بأنه متى صح الحديث فهو مذهبهم وبذلك يمكن أن تضبط المعارف الاسلامية فى المسائل العملية

ان تم تجديد علم الكلام وتجديد مسائل الاخلاق وتنظيم أمر المعارف العقلية أى رجع الفقه والتوحيد وعلم الاخلاق الى ما كان عليه سلف الامة والسابقون الاولون من أهل الملة — تم ضبط المعارف الاسلامية وذهب مابها اليوم من التشويش والاضطراب

حقا ان هذا يحتاج الى تغيير اتجاه التفكير لدى علماء الملة ولدى الحكومات الاسلامية . أما الحكومات فهى لاتهتم بأمر المعارف الاسلامية وما سمعنا أن حكومة اسلامية أرادت تحرير تلك المعارف وضبطها وتحويلها الى ماينفع الامة فى أمر معاشها ومعادها وأما العلماء فان حالة التعليم فى المعاهد الدينية قد جعلت وظيفتهم قاصرة على فهم

عبارات المصنفين ومقاصد المؤلفين، ان وصل العالم منهم الى الى تلك الدرجة فقد أصبح فى نظر نفسه ونظر الهيئة العلمية قائما بوراثة النبوة حاميا حمى الشريعة مبلغا شريعة الله الى خلقه . فأى قوة ستحول هذا الاتجاه بعد ان كرت عليه القرون ومضت عليه العصور حتى أصبح عادة راسخة وسنة متبعة ؟ وأى رجاء فى قوم هذا شأنهم ؟ وأى أمل يرجى منهم وقد سمعوا على سلوك هذا السبيل ، واتباع ذلك المنهج ، على حين ان الحكومات التى تدير البلاد الاسلامية تراهم غير قائمين بعمل يرتبط بمصالح الامم ؟ ومن الغريب انهم لم يطالبوا الحكومات يوما من الايام بأن تجعل تعليم الدين فى مدارسها أمرا اجباريا ولم يعدوا نفوسهم ساعة من نهار للاشراف على تعليم الدين فى مدارس الحكومة .

تركوا أمر العامة لرجال الطرق ، وتركوا تلامذة المدارس لارادة المحتلين فى البلاد المحتلة ، ولسوء نظام التعليم فى البلاد المستقلة فلاهم تولوا أمر العامة فهدوها الى تعليم الدين وأحيوا فى نفوسها ما أمرت به الشريعة من العقائد والفضائل وإقامة

معالم الملة وتأدية الفرائض المطلوبة وترك المحرمات المنهيه ولا هم تولوا أمر التعليم الدينى فى مدارس الحكومة، ولا هم أصلحوا شأن المعارف الاسلامية فى معاهدهم بل رضوا بان يكونوا قوما فنيين لاغرض لهم من وراء التعلم والتعليم سوى تحليل كلام المؤلفين وبيان أغراض المصنفين ورجع ضمائر الكاتبين صناعة غايتها نفسها، موضوعها البحث فى عبارات المؤلفين، وغايتها فهم تلك العبارات !

أما تطبيق المعارف الاسلامية على أصولها وربط شؤون الحياة بها وأحياء ماتدعو اليه الشريعة فى أمور المعاش والمعاد فأمر قد نسيه العلماء كما نسيته الحكومات الاسلاميه

هذا هو السر فيما نراه اليوم من تأخر المسلمين وانحطاطهم وتمزيق وحدتهم وتفكيك جامعتهم مع كثرة عددهم وانتشار العلم بينهم ومع ماهم عليه من تقارب الاقطار وتجاور الديار ومتاخمة الممالك واتساع نطاق العمران واشتمال بلادهم على خير البلاد واكبر الانهار وأخصب البقاع وأعدل الاجواء وأطيب الاماكن يسكنون فى آسيا

وأوروبا وآفريقيا وجزر المحيط الهندى ولهم فى اكثر ذلك الاغلبية الساحقة، والممالك المتجاورة

فما الذى قعد بهم عن مناهضة الامم ومدافعة المغيرين ومكافحة الخطوب ومقارعة الحوادث ، يفتقرون الى غيرهم فى كل شىء وينهزمون فى كل مزاحمة ، على حين أنهم كانوا هم السابقين مع قلة عددهم وضعف مواردهم وجدوبة مساكنهم يوم قهروا الامم وتلوا العروش وهدموا الممالك، يوم نشروا ألوية المعارف وأقاموا معالم العدل ، لاريب أن ما كانوا عليه فى الصدر الاول يخالف ماهم عليه اليوم، والا لما اختلفت النتيجة وتباين الاثر

بلغوا مابلغوا اليه فى الصدر الاول لسبب واحد هو انتظام أمر المعارف الاسلامية وتحريرها وضبطها ووصلوا الى ماوصلوا اليه اليوم من الذلة والصغار لاضطراب تلك المعارف وتشويهها وعدم ضبطها . فعسى أن تقرن نهضتهم الحاضرة بالعمل لتنظيم تلك المعارف، ورجعها لحالتها الاولى وما ذلك على الله بعزيز

علماء السلف وعلماء الخلف

كان العلماء فى صدر الملة هم أرباب الفقه فى الدين فكان بيدهم الحكم والافتاء وبيان العقائد ودفع الشبه عنها ونشر العلم ووضع المألفات التي تمس اليها حاجة الشعب فسدوا حاجة تطلبتها الامة وشغلوا مركزاً لاغني للشعوب عنه انظر الى الخلفاء الراشدين وهم يبحثون من العلماء حينما تنزل نازلة أو تحدث مشكلة يتوقف حلها على الحكم أو الافتاء أو البيان والارشاد ثم انظر الى حاجة الامة الى علماء التابعين والى موقف هؤلاء العلماء من الامة وتقديرهم لهذا الموقف واعدادهم نفوسهم للقيام باعبائه وبذلهم النصح لله ولرسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم ثم انظر بعد ذلك الى مكانة أبي حنيفه ومالك وابن أبي ليلى وسفيان والى مرتبة الشافعى وابن حنبل وابن جرير وداوود الظاهرى وأبي يوسف ومحمد وابن القاسم واشهب وسائر علماء هذا العصر أنظر الى تلك المكانات والمراتب والى تقدير أصحابها لها وتقدير الامة لاصحابها نفعوا الامة

ونفعوا الدولة، وانتفعت بهم الامة والدولة. ومن أراد منهم اعتزال الناس ولزوم بيته قهرته الجماهير على ترك العزله لشعورها بالحاجة اليه وطرقت عليه بابه لعدم استغنائها عنه

احتاجت اليهم الحكومة فى القضاء والافتاء واحتاجت اليهم الامة فى الهداية والارشاد واحتاجت اليهم الافراد للاستفادة والانتفاع فكانوا روح الجماهير فى عصرهم ولاغنى للناس عما به قوام الحياة، وهو الروح

فخلف من بعدهم خلف غفلوا عن تقدير موقفهم من الامة وتناسوا حاجة الجماهير اليهم فشغلوا نفوسهم بالبحث فيما لاحاجة للجماهير به لانه خارج عن متناول فروع الحياة لديهم

اشتغل فريق بالتصوف والعزلة وفريق آخر بالدقائق والرقائق (كما يقولون) والجماهير لا يهمها كل ماية علق بالمباحث الخاصه بتلك الدقائق والرقائق واشتغل فريق باختصار العلوم فى عبارات ضيقة تحتاج الى شرح وبيان فأدى ذلك الى اشتغال فريق آخر بوضع شروح على تلك العبارات

الموضوع	نمرة الصحيفة
النهضة الاسلامية الحاضرة	٤
الاخوة الاسلامية	٢٧
احياء الاهتداء بكتاب الله	٤٥
القرآن والاخلاق	٥٦
القرآن والقصص	٦٣
فهم القرآن	٦٩
الجهاد والقرآن	٧١
قوة تأثير القرآن	٨٠
القرآن والمعارف الوضعية	٨٤
القرآن وسنن الوجود	٩٥
القرآن والروايات الاسرائيلية	١٠١
القرآن والدار الآخرة	١٠٨
المعارف الاسلامية	١١٧
علماء السلف وعلماء الخلف	١٩٢

فهرست

موضوع	نمرة الصحيفة
بالحاج النهضة الاسلامية الحاضرة	٤
الاخوة الاسلامية	٢٧
اليهم احياء الاهتداء بكتاب الله	٤٥
للاسـ القرآن والاخلاق	٥٦
للناس القرآن والقصص	٦٣
فهم القرآن	٦٩
الجهاد والقرآن	٧١
قوة تأثير القرآن	٨٠
القرآن والمعارف الوضعية	٨٤
القرآن وسنن الوجود	٩٥
والرقائق القرآن والروايات الاسرائيلية	١٠١
الخاصه بتد القرآن والدار الآخرة	١٠٨
العلوم فى عـ المعارف الاسلامية	١١٧
الى اشتغال ـ علماء السلف وعلماء الخلف	١٩٣